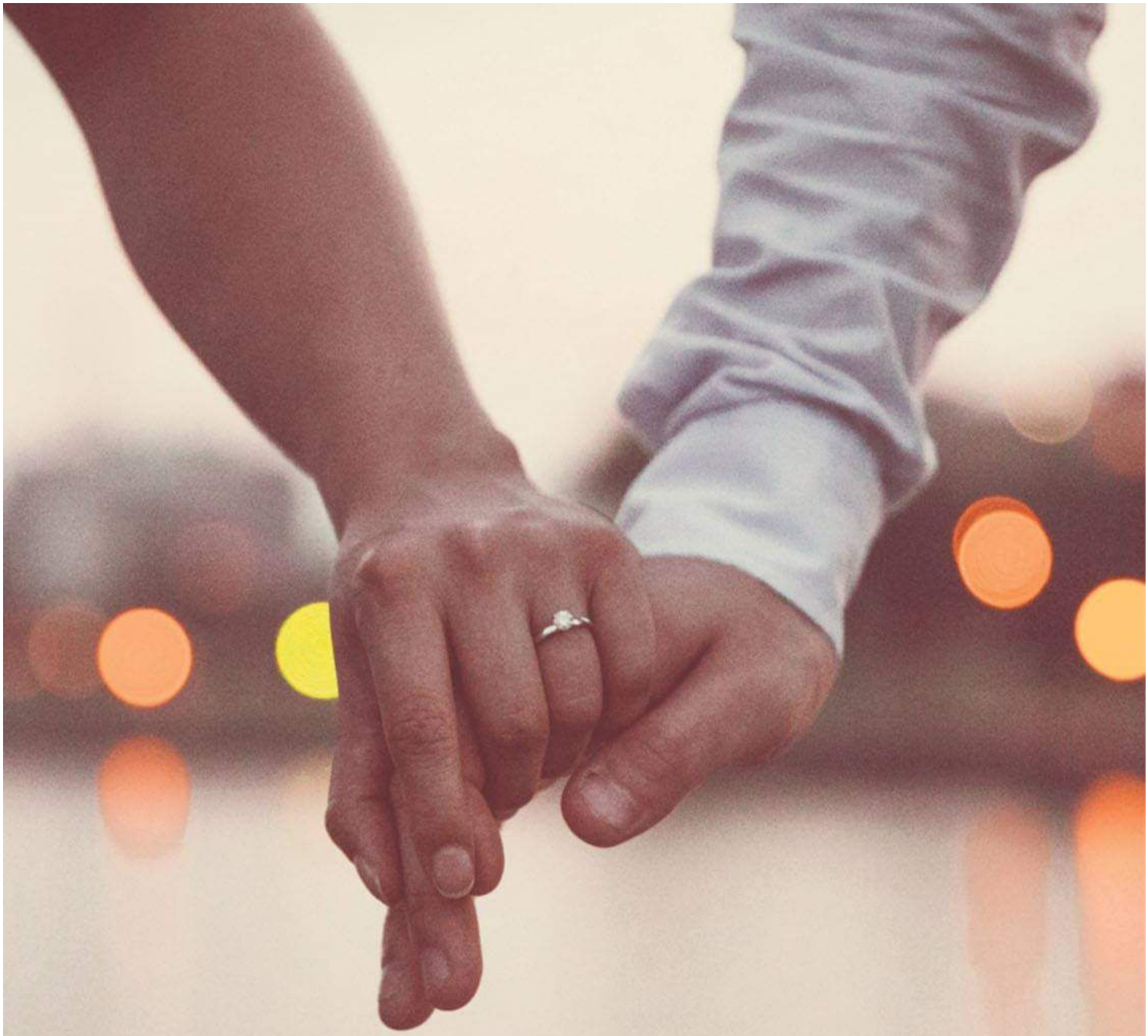

رحمة حسام

نصيب

مجموعة قصصية

السعيد
نشر وتوزيع

رحمة حسام

نصيب

مجموعة قصصية

غُفران

الصباح رباح.

و قد أتي الصباح أخيراً بعد ليلة طويلة قضتها (ليلي) في أرق ثم نوم متقطع تتخلله الأضغاث المقلقة. لم تفلح أبداً في تغيير عادتها هذه، فمنذ كانت طفلة في المرحلة الابتدائية وهي تقضي ليالي الاختبارات أرقاً، أو تنام فتري نفسها في لجنة الامتحان وإذ بالوقت يمر دون إجابات تكتبها، أو يجف حبر القلم، أو تنقطع ورقة الإجابة، أو يهبط تنينٌ مجنح علي اللجنة من السماء، المهم أن تنهكها المخاوف حتي الصباح، فتستيقظ حامدةً ربها أن كان ما رأته حلما ليس إلا. وعندما أنهت كل مراحلها التعليمية لم تتخلَّ عنها تلك العادة، بل صاحبتها بصورة أعمّ لتشمل كل نواحي الحياة، ففي الليلة السابقة لتلك المقابلة التي أجرتها منذ خمسةٍ وعشرين عاماً لتلتحق بوظيفة معلمة لغة عربية بإحدى المدارس الحكومية تناوبت عليها الكوابيس، فتارةً تري نفسها وقد فقد لسانها القدرة علي النطق فجأة حين وجّه لها المدير الأسئلة، و تارةً تري المدير بينما يُحدّثها وقد استحال وجهه فصار كوجه وحش بغيض يُكشّر عن أنيابه. أما الليلة التي سبقت زفافها فكانت فيضا من الكوارث الكونية المتفجرة بعقلها الباطن.

تمر السنون وتصير (ليلي) ذات خمسةٍ وأربعين ولا شيء فيها يتغير. لم تكن أضغاث الأحلام وحدها سبب القلق تلك الليلة، بل شغلها كذلك

التفكير في ترتيب الخطوات التي ستقوم بها غدا حتي تتمكن من إنهاء مهامها قبل الثانية ظهرا، هذا إن افترضنا أن الموظفين سوف يبقون في مقرات أعمالهم حتي اللحظات الأخيرة، و هو أمر غير مضمون بطبيعة الحال.

"استخراج بيان الحالة الوظيفية من مدام عزة.. واستخراج مفردات المرتب من مدام عبير.. ثم الذهاب إلي فرع البنك القريب من المدرسة وتقديم بيان الحالة ومفردات المرتب وصورة البطاقة.. آاه كنت سأنسي.. قبل التوجه إلي البنك سأمر بالسيارة علي مديحة.. سأقدم الأوراق ومديحة ستوقع كضامن.. يحصل الناس علي القروض كل يوم.. لم كل هذا القلق؟ ".

***

كان من المفترض أن تبدأ (ليلي) في استخراج الأوراق منذ الحادية عشرة، أي بعد انتهاء الحصص المدرجة بجدولها مباشرةً، ولكنها الآن الحادية عشرة ونصف ولم تفعل شيئاً بعد، إذ أن مدام عزة لم تحضر، ومدام عبير لم تكن جالسة بمكتبها حين سألت عنها، إذن لن تُنهي المهمة اليوم. سوف تمر بعد قليل علي مكتب مدام عبير لربما تكون قد عادت، ثم تستكمل بقية الإجراءات غدا.

المشكلة أن (دينا) تسألها كلَّ يوم عن القرض، لأن خطيبها بدوره يسألها كل يوم :

- متي سننتهي من شراء العفش ؟

يقصد طبعا : متي ستشتري أمك يا دينا المطلوب منها ؟

– الصبر جميل..

– صبرنا طويلاً يا ماما..

– وهل قصّرنا في شيء ؟

– التأخير من جانبنا الآن.

– منذ شهر واحد فقط كان التأخير من الناحيتين. أقصد هو لم ينته من المطلوب منه إلا الشهر الماضي.

– كم علينا أن ننتظر؟

– قولي يا رب.

– لا حول ولا قوة إلا بالله !

– هههههههه.. اهدأي يا عبيطة أنا أمزح.

– أريد موعدا أخبره به..

– سأحصل علي قرض هذا الأسبوع إن شاء الله.. بعدها سنشتري ما ينقصك مباشرة.

– يا مسهل.

هذا الفتي يستفزها كثيرا، ولا تفهم علام تحبه (دينا)!

نبّهتها أكثر من مرة وحاولت الإشارة إلي عيوبه، ولكنها لا تتقبل هذا النقد. (دينا) حادة وجافة في غالب تعاملاتها معها. أدركت (ليلي) عنها هذا الأمر مبكراً منذ كانت طفلة، حتي أنها كانت تبكي أحيانا حين يتردد في نفسها هذا التساؤل:

" هل تكرهني هذه البنت ؟ "

و يشتد بها العذاب حين يتبعه سؤال آخر :

" أكانت (رُقيّة) لتحبني أكثر ؟ "

فتهتاج نفسها وتضطرب، ثم تعود تهدأ حين تأتي (دينا) آخر كل ليلة لتنام بجوارها وقد حرصت أن تكون أقرب ما تكون منها لتطمئن بقربها

فتطبع (ليلي) علي جبينها قبلة مرددة في نفسها :

" اللهم اخزيك يا شيطان ".

***

– صباح الخير يا مدام عبير. أتيت منذ نصف ساعة لاستخراج مفردات مرتب. أتساءل عن إمكانية ذلك الآن.

– بالتأكيد. أعتذر عن التأخير.

– لا عليك.

ثمة شيء غير طبيعي. وجه مدام (عبير)، عيناها، صوتها، كل ما فيها يُخبر عن بكاء أنهته حين دخلت (ليلي).

– مدام (عبير) أنتِ بخير ؟!

– سأكون بخير. لا داعي للقلق.

– بإمكاني مساعدتك ؟

– أشكرك. لا أظن أن أحدًا يمكنه مساعدتي. وحده الله قادرٌ أن يساعدني و يلطف بي. أشكرك مرة ثانية.

تعرف (ليلي) جانبا من المأساة، الجميع في المدرسة يعرفون. يعرفون

أن الأستاذ (أشرف) زوج مدام (عبير) تزوج عليها منذ ثلاثة أشهر. لم تحتمل (عبير) الصدمة. قصة حبهما الكبيرة يعرفها جميع القدامى بالمدرسة. لديهما ثلاثة أبناء ينحتون في الصخر لكفايتهم، (عبير) امرأة مهذبة ومخلصة، وزوجة محبة لزوجها وأبنائها، لماذا يفجعها ذلك الغبي ؟

– أكيد يا مدام عبير، الله عليم بذات الصدور.

تدرك أن الصمت أفضل من التعزية في بعض الأحيان، لذا لاذت بالصمت بعد عبارتها السابقة، واكتفت بالرَبَتِ علي كتفها.

– تودين حقا مساعدتي؟ سأخبرك بأمرٍ ما.. أطلب المشورة. هذا طبعا لو لن أعطلك.

– يسعدني ذلك بالتأكيد.. تفضّلي أنا أسمعك.

جلست علي الكرسي المجاور لها، و مالت برأسها نحوها.

– تعرفين ما فعله ذلك النذل. تعرفين أنني الآن لا شيء. كقطعة أساس رخيصة ملقاة في غرفة الكراكيب، كفكرة مؤلمة نهجرُ ذكرها، كأي شيء حقير لا قيمة له، صِرت أنا.

– ما هذا الكلام! أنتِ ست الستات يا مدام عبير.

– لا أقول أن هذه حقيقتي، هذا ما يراه هو ويتعامل علي أساسه. علي أي حال أنا ما عدت أريد منه شيئا، ولا عاد في نظري رجلا أرغب فيه من الأساس.

– ربنا يصلح الحال..

– ثمة أمران يربطانني به، ليس بوسعي أن أفك عقدتهما أبدا : أبنائي، و أمّه.

– أُمّه ؟!

– أُمّه أطيب مخلوقة علي وجه الأرض، ليتها فقدته قبل مولده! تسكن معنا منذ تزوجنا، أو بمعني أدق نحن من نسكن معها. هو ابنها الوحيد وأبوه متوفي، والشقة فسيحة يصعُب الحصول علي مثلها هذه الأيام لم أجد سبباً لرفض فكرته بالإقامة مع أمه حين تزوجنا.

– تمام.

– في البدء خفت. لكن كرمها معي فاجأني. تعاملني كابنتها، لم يحدث أن تسببت في خلاف بيني وبينه إطلاقاً، علي العكس من ذلك، لطالما سعت بيننا بالخير وكثيرا ما أنصفتني.

– ربنا يكرمها.

– منذ عام وبسبب حادث سير أصبحت قعيدة. أرعاها عن طيب خاطر ومودة حقيقية لها في قلبي.

– جازاكِ الله خيرا.

– الآن هو ليس معي، أُمّه معي. ألا يُفترض أن يكون هو معها؟ أن تكون عروسته في خدمتها كما أنا دوما في خدمتها؟

– أفهمك..

– أنا نفسي لا أفهمني ! صدقيني يا (ليلي) أنا فعلا أحبها. أحب وجودها معي أنا والأولاد. ينتابني شعور أنها أمي من محبتها وشفقتها

عليّ. هي لم توافقه أبدا علي زواجه الثاني. لم تلتقِ بها حتي. لا أستطيع أن أطعنها، أن أجعلها نقطة خلاف وورقة مساومة. هل تفهميني؟ لا أقدر علي القساوة. كيف علّم (أشرف) قلبه الجفاء؟ كيف استطاع بعد هذه السنين أن يتنصّل مني ومن أبنائه؟

غشاها البكاء، فتوقفت عن الكلام. لم تعرف (ليلي) ماذا تقول. بعد دقيقتين من الذهول والسكوت نطقت أخيراً. قالت بنبرةٍ مترددة :

– أحيانا، لا يعرف العقل ما يفترض به أن يفعل. موقف عجيب! حين تتداخل المعطيات تكون النتائج متشابكة ومتضاربة. يحار العقل، لكن من حسن الحظ أن القلب دائما واضح، صارخٌ بحقيقته. انصتي لقلبك يا (عبير). فلقد اخترع الإنسان ما يذهب بعقله ويسكته عن التفكير، لكن أحدا لم يعرف بعد كيف يُسكِت قلبه.

– إلي متي سأقدر في ظنك ؟

سكتت (ليلي) ولم ترد، واكتفت باحتضان (عبير).

***

مساء الخير يا مدام (عبير). لعلك بخير، والأولاد جميعاً. أتمني ألا تزعجك رسالتي..

تذكُرين ذلك اليوم حين تحدّثتِ إليّ عن أمر حماتك؟ كان ذلك منذ عام تقريبا، لكن سؤالك لم يكف عن التردد في عقلي. سألتيني حينها إلي متي فلم أرد. اليوم أزعم أن لديّ رداً.

غداً بإذن الله ستلد (دينا). كيف مرت الأيام بهذه السرعة!

لا أستطيع النوم. مع أني جهّزت كل ما قد تحتاجه غدا أو يحتاجه النونو. أعدت النظر في الحقيبة خمسَ مرات حتي الآن لأتأكد أنني لم أنسَ شيئا. دخلت لأنام بجوارها. أذهب القلقُ النومَ من عينيها. مسكينة. لكني نجحت أخيرا في جعلِها تنام.

ربما ترين تعبيري سينمائياً بعض الشيء، لكن هذا ما يحدث: شريطا عمري وعمرها، يمُرّان أمام عيني الآن..

شعور مُذهل، ومثير، حين تتأملين الأمر..

حين ترين من سهرتي علي تربيتها ستصير مربيةً بعد قليل. من أفنيتي عمرك في رعايتها، ستبدأ غداً مسيرة الفناء. قطعة غالية منكِ، ستمنح العالم قطعةً غالية منها..

قطعةٌ غاليةٌ مِنّي.. راحت ذات يوم مع الأمواج!

حين هجمَ الموجُ علي زوجي، ذلك اليوم البعيد، و برفقته تسبحان، ابنتي وابنته، لم يقدر أن ينقذهما معا، فأمسك بالقطعة التي كانت منه، وأفلت التي كانت مني!

نجا من الأمواج، لكنه لم ينج أبدا من نظرات عتابي. حتي فارقني ذات يوم فجأة، بلا موج، و لا خطر، نام ولم يستيقظ. لم يعد في البيت غيري وغيرها، أنا و (دينا)، ابنته من زوجته السابقة.

لم يكن أمامي الكثير من الخيارات، والداه متوفيان، لا أحد لابنته غيري. في البدء عانيت كثيراً. حين أفكر أنه استبقي ابنته وضحّي بابنتي التي ائتمنته عليها أُعاني، وحين لا أشعر بكامل محبة (دينا) لي أُعاني، وحين أشتاقُ لرائحة ابنتي أحترق. تحسّنت الأمور بمرور الأيام. وبعد

زواجها، أدركت أنها أجمل ما في حياتي، وأنني مثلها حين رحل أبوها، لا أحد لي غيرها.

اليوم احتضنتني و بكت. اعتذرت لي عن أخطاء لم تقصدها. وصارحتني بمحبةٍ لم تُحسِن التعبيرَ عنها في صغرها. دعت لي أن يُجازيني الله خيرا عنها، ووعدتني أنها ستسمي ابنتها (رقية)، علي اسم ابنتي رحمها الله.

سألتيني يا (عبير) ذلك اليوم، إلي متي؟

حتي يَكُفُّ نبضُ قلبِك.

فقد يأتي يوماً لا يجد ما يُطيّبه سوي ثمرةُ الإنصاتِ لصوتِه الصادق.

السَّاحِر والشتاء

كتَبَتْ تقول:

" لعلك بخير.. وأنا – رغم أنه لا يعنيك- بخير ولله الحمد. أحري بك ألا تتعجب مما أقول؛ فأنا- مثلا- ما عادت أفعالك تثير تعجبي. أنت بأكملك ما عدت تثير شيئاً في نفسي سوى الأسى والخذلان العميق.

فحين تنتظر أحدهم بلهفة.. وتعدُّ الأيام.. وتسهر الليالي حالماً بلقاء.. وحياةٍ يتحقق فيها كل ما حلمتما به سوياً.. لتكتشف في النهاية أنك ما انتظرت سوى سراب.. إن لم يكن ما تشعر به حينها هو الأسى بعينه، فكيف يكون الأسى إذن؟

و حين تمضى بك الأيام منتظراً سماع كلمة يطمئن بها قلبك .. تنتظر وقد افترضت ألف عذر لمن تنتظر نطقه.. فلا ينطق حتي بما تكره.. بل يأتي بما هو أقسى: لا ينطق أصلا.. يتجاهل تساؤلاتك.. يتهرب منك كما يهرب المرء من عدوه.. يعاملك كحملٍ غير مرغوب.. ثقيل على النفس.. ألا يتمزق قلبك حينها من خذلانه ؟

و المأساةُ أنَّك لم تفرض ذاتك على أحد من الأساس. قد كنت في حالك تماماً.. لا يشغل بالك سوى ترتيب الملابس في دولابك بشكلٍ يسهّل عليك الاختيار منها في الصباح قبل الذهاب إلى الجامعة، والبحث

عن وصفات طبيعية تُجدد بها نضارة بشرتك، والشجار مع الصديقة حول اللون الأنسب للفستان الذى سترتديه في فرح ابنة خالتك.. أشياءٌ من هذا القبيل لا تُوجِع القلب.

فيجيئك وجعُ القلب.. بغير سعيٍ منك ولا طلب. يجئ في صورة جارٍ مثلك، جميل المُحيّا.. بهىّ الطلعة.. متفوق.. نابغ. لطالما لمّح ولم يصرّح. لمّح في البدء بابتساماته المتكررة في اللقاءات العفوية السريعة.. ثم بالنظرات الخاطفة.. ثم بالنظرات الطويلة من عينين ساحرتين، تتمنى أن تسبح فيهما وتخشى الغرق.

تظل زماناً تشيح بوجهك بعيدا بكل ما أوتيت من كبرياءٍ لا يرضى التبدل، فلا يجد الساحر سبيلا أمامه بعد ذلك ليخلب لُبَّك سوى أن يُصرِّح بما يهتز له القلب.. أي قلب.

فأي قلب لا ينتشى حين تخبره أنه أجمل ما رأت العين وأرقُّ ما سكن القلب.. وأن النعيم في حضرتِه لا يضاهيه نعيم.. وأن البقاء معه إلى الأبد أعزُّ أمانيه؟

ما بالك إن كان قلبك قد أنهكه التمني من قبل أن يحدث هذا الذي يحدث.. أن يسمع ما يُلقي علي سمعه.. غير أنه ما كان ليرضى أن يتخذ العِوَجَ سبيلا.

ها هو حلمك يتحقق.. ويجيئك مستقيماً لا زيغَ فيه من السبيل الذى ترتضيه.. أليس هذا هو النعيم؟

لكن نعيمك غير مكتمل؛ إذ كان مما أُخبِرتَ به بعد ذلك:

"ولكنى سأسافر، بعثة لمدة ثلاث سنوات إلى فرنسا، كم أحلم بتلك

اللحظة التي نتشارك فيها سقيعها في الشتاء سوياً.. نخرج إلى الشوارع نتسكع تحت الأمطار.. غير عابئين بالبرودة من حولنا.. متدفئين بما نحمله من محبةٍ في قلبينا. سأسافر العام الأول بمفردي حتي أرتب أمورى، ثم أعود لأصطحبك معي إلى حيث نهنأ كما لم نعرف الهناء من قبل".

و لأنك تحبه، تفرح لنجاحه ذاك.. غير أن قلقاً ما يسكنك، وسؤالا يتردد بداخلك :

كيف ستكون علاقتنا في هذا العام؟

إن لم يوجد رابطٌ ما يربطكما، كيف يستقيم الأمر؟ وكيف يطيق قلبك أن تشتاق إليه فلا يجوز أن تحادثه لتخبره، أن تفرح فلا يجوز أن تشركه معك فرحتك، أن تخاف فلا يجوز أن تطمئن نفسك بأمان محبته؟

ثم السؤال الذى يزيد من حيرتك :

ولماذا لا يفكر هو كما تفكر، ولا يشعر كما تشعر، إن كان يحب كما تحب؟!

تُلمِّح له بما أرّق قلبك، علّك تجد لأرقك صدى، فلا تجد جواباً سوى مزيداً من سحرٍ قد أتقن فنونه، يُمنّى القلب بعذبِ ظنونه.

صحيح.. هل تعرف كيف يأسر أحدهم قلباً بكلماته؟

أحسبك تعرف.. وتعرف أيضاً كيف يسافر المرء وقد ترك خلفه حلماً هو فارسه، ثم يبرع في قتله ببطء ولا يبالى.

بالتسويف.. بالتجاهل.. بالتعالي على قلبٍ رآك حقاً في العُلا، فسحقته!

مرَّ عامان ولم تأتِ، حتى تسويفك قد كففت عنه، ورسائلي القليلة المتباعدة التي أرسلها للطمأنة عليك قد صارت عبئاً ثقيلاً على نفسك لا تقوي على تحمّله.

منذ شهرين، لم أسمع منك خبراً ولم أرسل إليك؛ فقد آثرت أن أكف عن تعذيبك برسالاتي المزعجة. ولكن أمراً لافتا ذكّرني-للأسف- أن أُرسل إليك:

لقد هجم الشتاء بسقيعه وأمطاره.

واليوم بينما كنت أعبر الطريق، أخذت أفرك اليدين ببعضهما البعض من السقيع تارة، وأرفعهما إلى رأسي لأحميها بهما من المياه تارة أخرى. في غمرة ذلك، تذكرت أن ثمة من كان يعدني أن يضمني إلى دفئه ويعبر بي الطريق إذا ما أشتد السقيع وتساقط المطر، فوددت أن أخبره أنني قادرة - وللحمد لله- على عبور الطريق بمفردي، وعلى احتضان ذاتي والاحتماء بدفء قلبها الذى لم يخدع أحدا. ولا حاجة بي قط إلى برودة قلب السحرة المحترفين. أولئك المخادعون الذين يعدوننا بدفء المحبة، ليتركونا بعدها لسقيع الخذلان ".

وِصال

عزيزي (سليم)..

نعم عزيزي.. هل تنتظر منى أن أناديك حبيبي؟ وأين ما تفعله من المحبة؟ ها.. أين؟

إن المعزّة، والعشرة، والعيش والملح، كلماتٌ تليق بنا أكثر.

هذه الكلمات التي تصلح لتوصيف علاقتك بمديرك في العمل لا زوجتك، ومن كانت يوماً حبيبتك، حتى هذه الكلمات صرت أشك في كونها تصفنا!

أُبالغ، وأصطنع دراما لا داعى لها.

أليس هذا ما تردده دوما في سرّك وأنت تشيح بوجهك مشمئزاً من انفعالاتي التي لا داعى لها من وجهة نظرك؟

تعرض عني، وتترك البيت من تنكيدي، تاركني -علي حسب قولك- ومأساتي الإغريقية التي أتلذذ بتأدية دور الضحية بها.

أليس هذا ما تفعله دوماً؟

تترك البيت.. تعاملني كمجنونة تتركها حتى تنتهى نوبتها.. لم تتعاطف معي لمرة واحدة.

ألم يخطر ببالك قط أنني أريد من يسمعني؟

***

(فلاش باك)..

- ممكن أسألك سؤال وتجاوب بوضوح؟

- تفضلي.

- أنت ليه مش بتحبنى قد ما بحبك؟

- أنا طبعا بحبك قد ما بتحبيني، بس مش زي ما بتحبيني.

- ممم.. معرفش يرد قام متفلسف.

- لا والله ما بتفلسف.. شوفي.. بيقولوا -هما مش أنا- إن الراجل مخلوق من الأرض عشان كده دايما بيسعى فيها، والست مخلوقة من الراجل عشان كده دايما بتسعى له.. عشان كده مختلفين في شكل حبهم، بس أكيد مش في درجته.

- اهو ده اللي ناقص.. أنا جريت وراك ولا سعيت لك إمتى إن شاء الله! شكلك نسيت.

- مقصدش كده.. طبعا يا ستي أنا اللي حفيت وراكي ودوخت السبع دوخات.. ما هو ده بقي سعيي المتعلق بالأرض.. لازم أخد الخطوة عشان يبقى فيه أسرة وبيت والحياة تستمر.. أنا اللي أقصده هو تعبيرك عن الحب وتعبيري عن الحب، إن جينا للحق أنتِ تعبيرك واضح وصريح ناحيتي، بتتطبخي لى أكل حلو.. بتحبي تكوني في عينيا حلوة.. بتقولي لى زي من شوية كده كلمتين حلوين.. أنا بقي تعبيري إني أشتغل وأشقى وأتعب عشان أعرف أعيشكم في أحسن وضع أقدر عليه.. بحبك وعينى على الأولاد والبيت.. ده اللي أقصده بإني متعلق بالأرض.

– قلت لي بقي.. طب خلى الأرض تنفعك!

– استنى بس رايحة فين، لا ما هو مش كله للأرض فيه شوية لست الأرض.. وبعدين ده على أساس إن أنا اللي ليا أسبوعين مخاصمنى ولما بكلمنى برد عليا من تحت ضروسي..

– من تحت ضروسى!

– آه.. هي أكيد ضروس حلوة بس مش كده..

– عامة آسفة بالنيابة عن ضروسي.. وبعدين هو المتنبي قال إيه؟

– قال إيه؟

– أغالبُ فيك الشوق، والشوقُ أغلبُ.. وأعجبُ من ذا الهجر، والوصلُ أعجبُ.. طبعا أنت مش فاهم حاجة.

– فاهم.. بس المتنبي ده كان فقري خالص.

– ليه بقى؟

– عشان الوصل أعذبُ.. أجملُ.. مش أعجبُ.. ولا إيه؟

كنت تراني يوماً ست الأرض، وكنت أغالب فيك شوقي حين الخصام.

كنت.. فكيف صرنا بمرور السنين ما نحن عليه الآن؟

كنت تقدّر كلامي الجميل وإن لم ترده، تفهم أني أحب أن أكون جميلة لأجلك. كنت تسمى هذا حباً. ما بالك صرت لا تريد أن تسمع كلاماً ولا ترى أن جمالي أمراً يستحق الانتباه إليه فضلا عن إبداء الإعجاب.. ما بالك صرت ذلك الشخص المنهك دوماً المشغول دوماً السارح دوماً،

سارحاً حتى في لحظات يُفترض أن تنظر فيها إليّ؟

هلّا أخبرتك أمراً: صحيح الوصل عذب.. لكن المتنبي لم يخطئ.. الوصل فعلاً أمره عجيب.

طبعا عجيب، فكيف يكون الوصل وكل ما حولنا يفرقنا؟ مصاريف المدرسة وأدوات الدراسة وحمل همها يفرقنا، فواتير الكهرباء والغاز والتليفون تفرقنا، تنظيف المنزل الذى لا ينظف أبداً يفرقنا، صراخ الطفلين وطلباتهما التي لا تنتهى تفرقنا، عملك صباحاً في الحكومة ومساء في شركةٍ خاصة ثم عودتك منهكاً لا ترى أمامك يفرقنا..

الوصل صعب، لكن الحب ليس طقساً نمارسه في أوقات فراغنا! الحب أن تعطى بنفسٍ راضية دون أن تشعرني نهاراً وليلاً أنني همٌ ثقيل.. أن نهدئ صراخ الطفلين معاً كما أتينا بهما إلى الدنيا معاً، لا أن تزيد علي صراخهم صراخك قائلاً: لّمى عيالك وسكتيهم!.. أن تعود منهكاً لا ترى شيئاً، لكن تراني، فأنا لست شيئاً!

الحب هو ماكنت – برغم كل الصعوبات– تعرفه وتجيده يوما ما.. فماذا أصاب قلبك؟

***

هلّا أخبرتك يا (سليم) ما أصاب قلبك؟ أنت لن تعترف.. من يعترف بأن عينه قد بدأت تزوغ؟ نعم تزوغ..

ليس شرطاً أن يعاكس الرجل الفتيات في الشارع لكى يكون زائغ العينين.. يكفى أن تلّمح بأن زوجة (عماد) زميلك أكثر رشاقة.. وأن

أسمعك تقول لأخيك معلقاً بينما تشاهدان إحدى المغنيات الخليعات على التليفزيون (آدي الحريم)!

لا يمكنني الجزم أن في الأمر خيانة، ولكنى أتعجب:

إذا كنت لازلت يعنيك الجمال.. ويعنيك الدلال.. لماذا صرت لا تقدرهما إن بديا منى؟!

لأنه أمر طبيعي اعتدته.. واجب على وحق لك.. أليس هذا جوابك؟ طيب.. أين حقي أنا؟ حقي أن أشعر بتقدير.. أليس من حقي أن أطمئن أنني لازلت حبيبتك؟

سليم.. أنا لست خيال مآتة، أنا أيضاً أرى الرجال الأكثر رشاقة منك، والأكثر وسامة، والأطول قامة، والأكثر مالاً..

أنا أراهم ولا أكف عن محبتك، أراهم ولا أعايرك بهم، أراهم ولازلت أقدّر لك كل ما تفعله من أجل بيتنا وأبدى الامتنان رغم أنه واجبك، أراهم ولا أُعلّق.

أنا لم أعلّق مثلاً حين رأيت (شريف) منذ أسبوع.

***

(فلاش باك)..

- أزيك !.. فكراني يا لُبني أنا شريف..

- أكيد فكراك.. أزيك يا شريف.. يااااه عاش من شافك.. أخبارك وأخبار طنط عزة؟

– الحمد لله تمام.. أنا خلاص رجعت من دبى مش هسافر تاني.. كفاية عليا عشر سنين..

– أه.. حمد الله على السلامة..

– الله يسلمك.. عارفة السفر جميل.. وفلوسه أكتر طبعا.. بس ميرنا تعبت.. ليها حق.. هناك قاعدة لوحدها طول اليوم وأنا في الشغل وهي مش عارفة تتأقلم.. قلت خلاص نرجع وبلاها.. هههههه.. صحيح أنتي مشوفتيش ميرنا، محضرتيش الفرح..

– لأ.. كان عندي ساعتها ظروف مقدرتش أجي..

– معلش أدينا رجعنا، وأكيد هنبقى نروح عند ماما كتير، لما تبقى عند مامتك فرصة نتقابل.. وتشوفي آدم ابني.. بيقولوا عليه شريف صغير!

– ربنا يخلى يا رب.. فرصة سعيدة وسلم لي على طنط عزة.

– أنا أسعد.. يوصل إن شاء الله.. سلام.

سليم.. أنا لم أحدثك من قبل طبعا عن شريف. شريف جارى منذ الطفولة.. كنت أحبه.. لا يوجد امرأة تحدث زوجها عن حبها القديم.

نحن النساء نستحي، ونرفق بالقلوب. ما بال الرجال يتحدثون بكل شيء ولا يبالون؟

لم أحدثك عن شريف..

شاب وسيمٌ جداً، ميسور الحال جداً، وحيد والديه المدلل، مدلل جداً. قضى أياماً طويلة يوحى إلى بالحب، ولم يصارحني أبداً.

لم أخبرك، أن قلبي حين علم بخطبته انخلع مني. لا أشك لحظة في

أنه كان يدرك حبى له، ولا أشك أنه حين أدرك ذلك تمادى في جماله، لأزداد أنا تعلّقاً ويزداد هو بنفسه غروراً. شريف مغرور. انخلع قلبي، لكنى حين تقدمت أنت لخطبتي كنت قد عاهدت الله ألا أظلم نفسى أو أحداً معي، أن أعطى قلبي فرصة ليسكنه من يستحقه، وقد ارتحت لك، ووافقت عليك، فارتحت بك.

أعترف.. رأيت منك نبل الحب.. ذقت معك نعيمه .. فهمت مراده.. آمنت بحقيقته..

الحبُّ عطاءٌ بسخاء رغم قلة الموجود.. أمانٌ وإيمان بإمكان المستحيل.. الحبُّ قرة عين لا تزوغ ولا تحيد.

الحبُّ لك يا سليم، فلماذا ما عدت تشعر بي؟ ولماذا رأيت شريف؟ ولماذا أنا أبكى الآن؟

***

(فلاش باك)..

– آدي اللي أخدته منك ومن الدنيا.. نكد وفقر..

– نكد وفقر! حياتك معايا مفهاش غير نكد وفقر!

– – آه.. ما هو لما يبقى كل حاجة نشيل همها يبقى نكد وفقر.. لما أبسط الحاجات في الدنيا تحسسني إنها أزمة يبقى نكد وفقر.. يا أخي أنا تعبت وقرفت كان مكتوب لي فين ده بس يا رب!

– عامة يا لبنى لو أنت شايفة حياتنا نكد وفقر فأنت حرة.. وأنا عمرى ما استخسرت في بيتنا أو فيكِ حاجة وأنتي عارفة كده كويس.. آسف إني

مش قادر أعيشك الحياة اللي كنتى بتتمنيها.. بس ده أقصى ما عندي واللي في إيدي.. والألفين جنيه أنا مكنتش أقصد حاجة وحالا أطلعهم لك.. أنا كنت أقصد يا ريت لو قلتيلى قبلها بكام يوم فأرتب نفسي.

معك حق، أنت لم تبخل علىّ بشيء.

و إنا لا أغفل عن لمحة الفرح في عينيك حين تشترى لي أو لأحد أبنائنا شيئا جديدا، وكأنما أنت الآخذ لا العاطي!

معك حق.. ليس ذنبك أن شريف أكثر مالاً، وأن زوجته حين رأيتها عند ماما مع طنط عزة بالأمس كانت ترتدى ساعةً يقارب ثمنها نصف راتبك. ليس ذنبك أيضا أنني قررت فجأة حضور مناسبة غدا وأحتاج ألفى جنيه اليوم لشراء ما ينقصني.

كل هذا ليس ذنبك، فلو كان ذنبك لاستوقفتك قبل أن تغادر البيت وتحدثت إليك بدلاً من حديثي الآن لنفسي علي الورق.

لكن هذا الحديث لا يجوز إلا لنفسي.. لا يجوز.. وما كان يجوز ما قلت لك.

أتدرى ما يبكيني الآن؟

لقد رأيت في عينيك لمعة بكاء وأنت تغادر، وددت حينها لو آخذك في حضني.

حبيبي سليم.. أنا آسفة.

وَحْدِي

"حفظك الله يا ابنتي.. وحده يعلمُ كم أحبكِ! أحبُّ أن أطيلَ النظرَ في وجهكِ، و أحبُّ أن آخذك في حضني، أحبُّ سماع صوتك.. فأنتِ منها، حبيبتُها و رفيقةُ عمرِها.. لم تحبْ أحداً مثلما أحبتكِ.. أريني وجهَكِ دوماً ، ولا تطيلي الغياب ".

تصر أمك أن تعذبني بكلماتها يا (هيام).

تصر أن تقطع أوصالي خجلا، وندما، واشتياق.

السلامُ علي روحِك – يا أنبلَ روح – في كل لحظةٍ ترقدين فيها وحدكِ.

وحدك – يا روحي – كما عشتِ، و تألمتِ، ورحلتِ.

وحدك كما سمَّيتِ نفسَكِ في كلماتك، تلك التي لم تخبري أحداً غيري أين تُخبئينها. لماذا أوصيتيني بأخذها؟

هل انكشف عنك حجاب الغيب، فعلمتِ أن من تستأمنينها علي حديثِ قلبك ستميته منكسراً يوماً ما، فقررتِ أن تكون كلماتك سيفا يمزقها – جزاء بما اكتسبت – في اليوم ألفَ مرة؟

***

(مذكرات هيام/ 19 إبريل 2000)

فهمت اليوم لماذا أمي حزينةٌ لأجلي.

لطالما آمنت أن إصابتي بداء السُكَّري في طفولتي ليس بأزمةٍ كبيرة. خِفتُ قليلا عندما قيل لي أني مريضة، خِفتُ من كلمة مرض، ومن الحُقن، وغضبت لحرماني من الحلوى. لكني كبرت، فلم تعد الكلمة تخيفني، ولا الحقن، ولم أعد أبكي علي الحلوى.. فلماذا لازالت أمي حزينة ؟

منذ أسبوعين كان امتحان مادة العقاقير، وكالعادة ذهبت إلي الامتحان بدون نوم. الخطأ الكبير الذي ارتكبته دون أن أنتبه كان ذهابي إلي الامتحان في التاسعة صباحاً ولم أتناولْ أي طعامٍ منذ الثالثة عصر اليوم السابق.

أغمي عليّ بعد خروجي من الامتحان مباشرة، والحمد لله أن (ليلي) كانت بجواري حينها. حملتني و زملائي إلي مستشفى الطلبة، وهناك أفاقوني سريعا فلم يستغرق الأمر سوى دقائق. كان السبب إجهاداً عادياً أي شخص معرض له.. ولكن الطبيب سألني بعد إفاقتي عما إذا كنت أعاني من أي مشكلة صحية، أخبرته أنني مريضة سكر. قلتها بلا اكتراث.. ولكنه اكترث، وشاهدت تغيراً في لون وجهه.

أنا لا أقصد الطبيب.. أقصد (قاسم).. زميلي بالكلية.

هل كتبت من قبل هنا شيئاً عنه؟

لا لم أكتب.. وأحمد الله أنني لم أكتب.. واسأل الله أن يتولى قلبي بلطفه ويداوي جرحه سريعا.

لست موهومة.. لطالما تبعني بنظراته.. حتي (ليلي) لاحظت من تلقاء

نفسها.. وحين كنا في رحلة الإسكندرية منذ شهرين كان يتحيّن الفرص ليتكلَّم معي.. هو لم يقل: أحبك، لكن كل ما فيه ومنه كان ينطق بها.

أما أنا ففي البدء لم أكن أفهمني، شيئا فشيئا تعلّقت به إلي حدٍ كبير.

لقد تغيّر لون وجهه حين قلت للطبيب أنني مصابة بالسكري، هل كان هذا قلقا علي؟

هذا ما أخبرتني به (ليلي) حين حدّثتها عن مخاوفي، قالت كذلك لكني لم أصدقها. أنا أعرف (ليلي) حين تكذب.. وحين تجامل.. وحين تواسي.. وحين تجبر بخاطري.

لقد تغيّر لونه، لأنه أدرك أنني بحالتي هذه لن أناسبه.. أليس كذلك يا (ليلي)؟

– لا يا حبيبتي. لا ترهقي أعصابك بافتراضاتٍ و ظنون لا أساس لها ولا دليل عليها.. أصلا كنتِ متعبة ووعيك لم يكتمل.. لا تشغلي بالك.

لكن الدلائلَ اتضحت؛ فالذي كان يلاحقني كظلي بنظراتِه صار الآن يشيح بوجهه عني إن تلاقت أعيننا، والذي كان يتحيّن الفرص ليحادثني صار يتهرب من مجرد المرور بجواري.

اتضح كل شيء يا ليلي.. واتضح أنني موهومة. أمي لها الحق أن تحزن لأجلي.

***

آاه.. أنا أذكر ذلك اليوم.

اتصلت بي أمك.. أخبرتني أنك تبكين في غرفتك ولا تريدين إخبارها

عن السبب، وترفضين الطعام والدواء. أتيت إلي بيتكم مسرعة. لا أنسي خيبة الأمل في عينيك.. ولا ضحكاتك اليائسة بينما تقولين:

– وكأنه سمعني أخبر الطبيب أنني مصابة بالإيدز!

لا أنسي بكاءك الحار علي كتفي.

حاولت تهدئتك وأنا أسب (قاسم) وألعنه.. قضينا المساء نسبه معاً.. حتي انتهينا إلي وجهة نظر حكيمة أثلجت صدرينا وأضحكتنا:

قاسم قصير.. وسمين.. و لديه كرش عظيم.. لم يكن أصلا مناسباً لفتاةٍ جميلة، ورشيقة مثلك يا هيام.

كان قلبي لا يزال واسعاً وحنوناً.. فلم تكوني حينها وحيدةً بعد.

***

(مذكرات هيام/ 25 مارس 2003)

كسبت الرهانَ يا (ليلي)، يعلم الله مقدار فرحتي أن كسبت!

تراهنّا أن تكون خطبتك هذا العام، في النصف الأول منه، وها أنا أكسب رهاني في الشهر الثالث.

(ليلي) عروسة! هذه أكبر فرحة شهدتها حياتي.

ليس في الأمر مبالغةٌ مني علي الإطلاق؛ أنا لا أُخت لي ولا أخ، ولم أذق فرحتي الخاصة بعد، لكني الآن أفرح لأجل صديقتي وأختي.

بدون (ليلي) أكون وحيدة جدا.

حتي أسراري المسطورة هنا تعرفها جميعا، تعرف عني ما لا يعرفه أحد.

تعبت قليلاً الأسبوع الماضي، فخطر لي خاطراً أرّقني:

ماذا لو مت فجأةً و قرأت أمي هذه الأوراق؟ ستزيد ألماً علي ألم.. وحزناً علي حزن.. حين تستعرض خيباتي وانكساراتي.

لذا أخبرت (ليلي) أين أخفي أوراقي، وأوصيتها إن أصابني مكروه أن تبادر بأخذها عندها قبل أن تقع بين يدي أمي.

ضحكت (ليلي) لمّا أخبرتها، وأخبرتني أنني سأعيش حتي أري أبناء أحفادي.

حفظك الله يا (ليلي).. ووفقكما وأسعدكما.. وجمع بينكما في الخير.

***

سامحني يا الله.. أو خذني!

علّني ارتاح.. أو ألقاها فاعتذر منها.

***

(مذكرات هيام/ 29 مايو 2008)

أنا فرحةٌ – طبعا – بنجاحي..

لم أتوقع النجاح إلي هذا الحد. الحمد لله أن لم أضيّع شقاء عمر أمي هباء، فلقد وضعت في الصيدلية كل ما ورثنا عن أبي وما ورثته أمي عن أبيها وما ادخرته عبر السنين.

أنا فرحةٌ بنجاحي.. لكن ينقصني شيء. كنت أتمني يا (ليلي) أن تشاركيني هذه الفرحة .

لماذا هذا الاختفاء؟

ستة أشهر مرّت لم تحاولي زيارتي فيها، لم تباركي لي.. أتصل و أدعوكِ لزيارتي ولا تأتي.. لماذا؟

لا أعتب عليك.. فليس بين الإخوة عتاب.

وددت رؤيتك ومشاركتي الاحتفال لا أكثر. أزعجني ما قلتيه حين هاتفتك أخر مرة.

أعلم أنك تمزحين.. ربما صرت حساسة بشكلٍ زائد عن اللزوم؟ ربما.

***

(فلاش باك)..

– يا سخيفة.. ستة أشهر مرت و لم أركِ.. لم تأتِ حتي لرؤية الصيدلية.. و كأنني أفتتح واحدة كل شهر!

– وكأني أجلس فارغةً يا أخت هيام! يا ماما مهند لا ينيمني الليل.. ليله نهار ونهاره نهار أيضاً.. لا ينام ولا ينيمني .

– نشيط.. ليس خمولا مثلك.. هههههه.

– ظريفة..

– هذه ليست حجة.. لم يقل أحد أن الأمومة تعني النذالة.. ألم أطلب منك مساعدتي يوم الافتتاح؟!

– الافتتاح.. الافتتاح! و كأني تغيبت عن فرحك!

- ممم.. كان بإمكانك أن تعتبريه فرحي وتأتي!

***

(مذكرات هيام / 1 يناير 2009)

لست مجنونة.. ولا حساسة بشكلٍ زائد عن اللزوم.. (ليلي) تغيّرت.. لا شك عندي في ذلك. لماذا ؟

ماذا فعلت لتتغيّر عليّ.. وكيف أعرف بدون أن اسألها؟.. وماذا اسألها؟.. هل اسألها:

لماذا يا (ليلي) صرت تعامليننني كخطر يُستحب اجتنابه ؟

و لماذا تخشين علي ابنك مني؟

و لماذا يا رفيقة عمري كففتي عن محبتي؟

***

ألم تعرفي الإجابة حقا؟

أحسبها واضحةً جداً: لأنني نذلةٌ، ولأن زوجي (سعد) سيئ النية.

احذريها.. احذري عينيها.. هي تحسدك.. راقبي كيف تنظر لمهند.. إنها تتحسر أن ليس لديها ابن مثلك.. إنها تحسدنا.. لا تذهبي إليها.. لماذا تريد منك رؤية صيدليتها؟ لتستعرض مالها أمامك! تريد أن تثير غيظك بما لديها.. ولربما عدتِ إلي البيت و تشاجرتِ معي لأنني لم أوَّفر لك مشروعاً خاصاً مثلها، و يا فرحتها فيك حينئذ !

كنت وقحاً يا (سعد).. وأنا وقحةٌ أن تَبِعتَكَ.

***

(27 مارس 2011)

اليوم أُتمم عامي الواحد والثلاثين.. تفاجأت بهذه الحقيقة!

لو كنّا كما كنّا.. لأتت ليلي اليوم إلي بيتي ومعها تورتةً جميلة من صنع يديها.. ولغنّت ورقصت برفقتي وتمنّت لي عاماً سعيداً.. كذلك كانت تفعل منذ سنين، وكذلك كنت أفعل في عيد ميلادها حتي العام الماضي، لكني لم أفعل هذا العام.

لماذا ؟ لن أفرض نفسي فرضا، فالأمر أصلا ما عاد يعنيها ولا يبهجها. العام الماضي لم أكد أدخل بيتها حتي أخبرتني أنها مضطرة للخروج، لم نكن قد أوقدنا شموعا ولا فتحت الهدية بعد، تظاهرت بألا بأس، ولكنني كنت أتمزق خجلاً. ألم تفهم ليلي التي كانت تفهمني من نظرة عيني ذلك؟

***

(7 أكتوبر 2011)

لماذا تأخر هذا القرار؟

كنت أقول في نفسي:

هل يعقل أن تأخذ الأختان قرارا ألا تصيرا أختين بعد اليوم؟

وإن فعلتا، أيغير هذا الحقيقة؟

ليلي عندي كأختي.. حتي لو ظنت بي الظنون.. تبقي أختاً مخطئة، تجورُ علي قلبي.

لم أخبر أمي يوماً بتصرفاتها معي؛ لا أريدها أن تكرهها.

أما الآن، فيبدو أنها لم تعد مخطئة فقط، هي لا تريدني في حياتها.

لن أفرض نفسي أكثر من هذا.. علي أي حال لن تلاحظ غيابي.. ولن تفتقد شيئا.. لا أظنها ستفتقدني.

أما أنا.. فمن الآن أتمزق.

من يوم جرحتني بأفعالها وأنا أتمزق.. و من يوم هجرني قاسم.. بل من يوم مات أبي..

منذ زمنٍ بعيد جداً.

***

(9 فبراير 2013)

لم أقدر علي منع نفسي، ذهبت إليها وأخبرتها.

أخبرتها بما أسعدني، فزادت سعادتي أضعافا!

فاجأتني بدموع الفرح لأجلي. فاجأتني فلم أملك نفسي وبكيت كطفلةٍ صغيرة بين ذراعيها، وكأني أردت أن يغسلَ الدمعُ عقلي، فيزيلُ عنه كلَّ ذكري سيئة حملها لها. فلا أعودُ أحملُ لها سوي الحب، ذلك الذي لم يمت من قلبي أبدا.

***

لماذا لم يقف الزمان عند هذه اللحظة ؟

آه يا هيام.. كم كنت سعيدة!

كانت تلك آخر مرة أكون فيها جديرة بمحبتك!

كم كانت جميلة لمعة عينيك.. والفرحة التي سكنت صوتك بينما تخبريني أنك تحبين (أمجد).. وأنه تقدم لخطبتك.

غمرت الفرحة قلبي لأجلك، وبكيت امتناناً لمحبتك التي لا أستحقها.

– لقد شعرت، برغم كل شيء، برغبتي في إخبارك. وبأنك ستفرحين معي ولأجلي. أليس كذلك؟

***

(10 أكتوبر 2013)

أنا في كابوس.. إما أن ينتهي، أو أنتهي.

ما معني ذلك؟

ما معني أنه اكتشف قبل فرحنا بأسبوعين أننا غير متفقين؟!

وما هذا الذي فعله سعد؟ هل قال حقا ما سمعته؟ وكيف سكتت ليلي؟ لا يمكن أن يكون هذا واقعاً.. لا يمكن. ولئن كان لا أريده.. ما عدت أريدُ البقاءَ في هذا العالم.

***

وقاحة (سعد).. نذالتي.. كان كل شيء واقعا.

تظن أمك أن فراقَ أمجد قتلك. تظن ذلك لأنكِ حين عدتِ إلي البيت كان آخر ما نطقتِ به أن أمجد تركك، ثم بقيتِ في غرفتك ثلاثة أيام تبكين، وهي لا تعرف ما بك، حتي دخلت عليك صبيحة اليوم الرابع لتجدك نائمةً نومتك الأبدية.

تظنُّ أمك أن أمجد وحده قتلك.. لا تعرف أنني وسعد قتلناك معه.. بل لا أشك أن كان لنا النصيب الأكبر؛ فلقد قدمتِ إلي بيتي بعد لقائك مع أمجد، فتحت الباب لأجدك غارقة في التعاسة. كنتِ تعيسة، ولكن كنتِ واقفة علي قدميكِ.

ما قاله سعد لي حين دخلتُ غرفتي وسمعتيه هو ما قصم ظهرك:

– ما الذي أتي بهذه الآن هنا؟ ها؟ لماذا أتت؟ وكيف تأتي هكذا بغير ميعاد؟ هل تظن أنها آتيةٌ إلي السوق؟.. ماذا؟.. تركها؟.. وما ذنبنا نحن؟.. هو أيضا محق.. لماذا يتزوج من مريضة؟ هل انقرضت النساء؟

خرجتُ إلي الصالة لأجدك غادرت، لماذا لم أجري لألحق بكِ؟

لأنني نذلةٌ، تركتك تغادرين فغادرتِ للأبد. ارتحتِ من نذالتي. لأحيا معذبةً طولَ عمري، يا رفيقةَ عُمرِي.

طواف

لن تنسَ ذلك اليوم أبدا..

لن تنسَ أنَّها بينما كانت تسيرُ في مكانٍ ما، لغرضٍ ما، بدا لها طيفُ المحبوبِ فدارت بها الأرض..

و ذهَلَت عن كلِّ غَرَض.

الهيئةُ هيئتُه.. والسَّيرُ سيرُه.. لو يستديرُ قليلا فتَرَي قمرُه و تملأ عينيها بنورِه يستحيلُ شكُّها يقيناً أنه هو، لكنه ما بقي علي حالِه و ما استدار، بل سرعان ما غابَ عن بصرِها و كأنه طار!

قالت في نفسها :

آه يا قمرُ لو بقيت قليلا.. لو أنرت سمائي قليلا.. لو لم تقسُ و لم أَهِنُّ. لو لم تُجافِ ولم أَحِنُّ. لَوْ!

تُري من أين سار؟

ولماذا أيها القلب تريدُ أن تعرف؟!

لو تَبعتَه ما لَحِقتَه.. ولو لَحِقْتَه ما استوقفتَه..

ولو استوقفتَه ما حدَّثتَه وما قَدِرتَ علي النطقِ بكلمة!

ذَهلَت عن نفسِها وعن كلِّ شيء، وأخذت تطوف بموضعِ رؤيته، تطوفُ بغيرِ إرادةٍ ولا تدبير، و كأنما يرسم أحدهم بعصاةٍ سحرية لها

الطريق. مُنقادةً تطوف، ذاهلةَ العينين، شاردةَ العقلِ ، مسلوبةَ الفؤاد.. تُحرِّكُ عيناها هنا وهناك.

في البدءِ ظنَّت أنها تُقلِّبُ النظرَ بحثاً عَنْه، ثم فطنت أنها قد غابت عن ذاتِها فلعلها كانت تبحث عنها.. وحين فطنت أشفقت علي حالها، فاعتصرَ قلبُها ألماً وفاضت من عينيها الدموع. كانت تطوفُ وتبكي. يزداد وهنُها فتسرعُ في المسير.. تشتدُّ في البكاء.. لا تدري كم من الوقت مضي ولا كم طافت، كادت تسقطُ علي الأرضِ من الإعياءِ و الألم..

– ما شأن هذا بسؤالي؟ لم تخبريني بَعْدُ يا جدتي لماذا نطوفُ بالكعبة؟

عادت الجَدَّةُ من شرودِها بسؤال حفيدتها ذات العشرين ربيعا والألفِ سؤالٍ وجدال، وتنبهت إلي الدموعِ التي ذرفتها رغماً عنها، تمنَّت لو أن حفيدتَها لم تنتبه لها، مسحتها بيدٍ مرتعشة من فعلِ الزمن، واستطردت تقول :

حين زرت بيتَ الله وقفت أمام الكعبةِ أنظرُ إليها، وإلي الطائفين من حولها، أُقلِّبُ النظرَ لا أدري عن أي شيء أبحث، ولا أعي ما يُفتَرَض بي أن أقول أو أفعل.

ذكَّرتني حيرتي بحيرتها في ذلك اليوم البعيد، ثم تذكرت فجأة – و كأن الجلبةَ من حولي قد أنستني– أنني في بيت الحبيبِ الأجَلِّ، حبيبي الذي منه كل الحب وإليه كل الحب، وأن هذا موضعَ نظرِه بمحبةٍ لزواره.

تذكَّرتُ فأخذتني رعشةٌ، ثم أخذت أطوفُ وأُلَبِّي، ولكن المفارقةَ أنني لم أكن حائرةَ النظرات كما كُنت.. كَانتْ في ذلك اليوم البعيد؛ فلماذا يحار القلبُ، وأُقلِّب البصرَ؟

الله بقلبي هنا لا يبتعد.. ولا يهجر ..ولا يقسو.. ولا يجافي.

أخذتُ أطوفُ وأبكي، رغماً عنِّي بكيت، بكاءَ قرب لا فراق.. وأُنْسَ لا احتراق. عقلي لا يعي يا ابنتي لِمَ فرضَ الله الطوافَ، ولا يعنيني سوي أنَّه قد أمرَ لأفعل. لكني أعرفُ بقلبِي أنَّ مَنْ عشقَ قلقَ، ومن قَلقَ لا سَكَنَ له غيرُ موضعِ جمعه بالمحبوب، أو موضعِ تَجَلِّي المحبوبِ بالقربِ عليه، و لذا فقد زرتُ بيتَ الله، لأقول له لبيك سيدي وحبيبي، وأقفُ بموضِعِ التَّجَلِّي.. فأسْكُنُ وأبكي.

ذرفت الجَدَّةُ دمعها مرةً آخري، ولم تنتبه الحفيدةُ أيضا. علي الأرجح لم يقنعها كلامُ الجدة كثيراً، فشكرتها بغير قناعةٍ أن ما سَمعته يستحقُّ الشكرَ، وتعللت بالانشغال وقامت عنها، لُتكملَ جدالَها مع عاقلٍ مفكرٍ آخر مثلها.. أو هكذا تَظنُّ.

اعتراف

الآن.. الآن أفتح قلبي، ليبوح بأسراره الصغيرة الدافئة.

الآن.. أنزع رداء الكبرياء، وأرتدى حُلة الطفولة التي لا توارى براءتها سرا، لا تكتم ألوانها حباً.

الآن أقولها، بتمام عقلي، وهيام قلبي، وملء فمي. أقولها وأرجو سماحاً على دهور كتماني، وعلى لحظاتٍ من كتمانك أسأت فهمها. الآن أفهمها، فتزداد في عيني قدراً على قدرك، وفى قلبي حباً على حبك.

نعم حبك.. أقول أحبك.. و لطالما أحببتك..

هل هو حقاً اعترافٌ جديد ؟!

صحيح.. أنا لم أنطق بها قبلاً، لكنك لا تعرف كم رددها قلبي في حديثه لنفسه ولا كم حلمت في نومى أنى أخبرك بها.

في حلمي.. كنت أنطقها، فأحلق في آفاق من النشوة والنعيم..

وكنت أراك تهنأ بها، ويشرق وجهك لسماعها..

ما أبهى وجهك يا مراد.. وما أجمل الأحلام! وما أقسى حين كنت أفيق لأجدني بمفردي، لا بحبٍ بحت، ولا بنورك امتلأت!

لم أنطق بها قبلا، لكنك كنت تشعر، وترى في عيني ما يكتم لساني..

أليس كذلك ؟ أعرف أن ذلك لم يكن سهلاً أبداً، أعرف أنى كنت أجيد الدلال والتكتم. أما أنت، فكان كل ما فيك بواحاً.

في صغرنا، حين كانت تتشابك أيادينا لاعبين، كانت أجمل أيام حياتي. كنت أفرح لقدومك برفقة خالتي إلى بيتنا، أفرح لرؤيتك، ولحديثٍ مطوّل يضمّ ثلاثتنا: أنا، وأخي (حسن)، وأنت.

نحكى عن قصةٍ قرأناها، عن حلمٍ حلمناه.. نصعد إلى سطح المنزل لنوّدع الشمس وأسراب الطيور عند الغروب، أو نعد النجوم ليلاً ونتقاسمها :

– هذه نجمتك يا حسن.. وهذه نجمتك يا مراد..

– وأنتِ؟

– أنا محتارة هههههه.. ما رأيك يا مراد.. أي نجمة آخذ؟

– مممم..

– ها.. يا مسهل..

– بس وجدتها.. خذي أنتِ القمر!

***

كبرنا، وكبر الحب في قلبينا..

صارت أماراته في عينيك أوضح. وأنا، صرت أشدّ كتماناً. أعذرني.. كنت أخجل منك، وأخجل حتى أن ألّمح لأمي. صحيح كبرنا، ولكن كنّا لازلنا صغاراً! أنت في ختام الثانوية وأنا في مبتدئها. كنت صغيرة، حتى أنّى لم أعرف كيف أتصرف حين أرسلت إليّ ذلك الخطاب لتصارحني، أتذكره؟

أنا أذكره.. بل إن كلماته محفورةٌ في قلبي :

" سعاد.. أختي وابنة خالتي وحبيبتي.. أنا أحبك.. وآسف إن كان يزعجك خطابي، آسف إن كانت تحرجك كلماتي.. لكنى لم أعد أقوى ألا أبوح.. أساسا لماذا أكتم أكثر؟ لقد كبرنا.. بعد شهر سألتحق بالكلية الحربية.. سأغيب عن بيتنا بالأشهر، سأغيب عن بيتكم، وعنكِ. وددت أن أخبرك قبل الغياب لتعلمي أنك ستكونين حاضرةً في قلبي. لقد صارحت أمي بحبك، وإن كان حالي لا يخفى عليها، لكنى آثرت المصارحة ليكون الأمر واضحاً ظاهراً، ولتطمئني وتصدقيني حين أقول أحبك.

وعدتني أمي أنها ستتحدث مع خالتي في الأمر، فَرِحَت جدا وابتسمت في وجهى لأول مرة منذ عدة أيام. تعلمين بالطبع أنها غاضبة منى ولا ترحب بالتحاقي بالكلية الحربية. تقول أنها لا تريد أن أموت فتموت حزناً عليّ. أضحك في وجهها حين تقول ذلك، وأسخر مازحاً بأن الحرب الأخيرة قد لحست عقلها. لكن الحقيقة، معها حق أن تخاف. من منّا لم تكسره النكسة ؟ من منّا لم يعد يخاف أن ينام فيستيقظ على كابوسٍ أقسى مما عشناه ونعيش توابعه ؟

ولكن.. من منّا يملك أن يتحكم في قلبه.. في حلمه.. في مشاعره ؟

أنا قد جاوزت الخوف.. و قد جاوزت الألم.. و لا أراني سوى مقاتل في سبيل ما تبقى فينا من حلمٍ وكرامة .

من منّا يملك أن يتحكم في قلبه ؟

أنا مثلا قد ولدت لأجدني أحبك.. منذ اللحظة الأولى أحبك.. منذ

الطفولة أحبك.. و في صباكِ أحبك.. وحتى الممات سأظل أحبك..

ماذا عنك أنتِ يا ترى؟ عن قلبك؟

لا أريد جواباً، وأنا متنازلٌ عن لذة قلبي في سماع الرد منك في سبيل ألا أسبب لك حرجاً. ولكن قلبي يحدثني بالجواب، وما شجعني على الكتابة غير ذلك..

فقط اعلمي ما بقلبي، وخذي عليه عهداً ألا يسكنه غيرك ".

أربكني كلامك، أربكني جدا..

ساورني سيلٌ من مشاعر متزاحمة، فرح.. خوف.. شوق.. خجل.. مزيجٌ عجيب لم أفهمه. ما كنت أفهمه جيداً وأشعر به جلياً لا يقبل الشك هو أنني أحبك كثيرا يا مراد..

أخذت الجواب، وأريته لأمي.

أخبرتني أن خالتي قد حدّثتها في الأمر، وأنها تحبك كثيرا كأخي حسن، وتراك شاباً واعداً. فهمت أنها تلمح لمحاسنك، وأنها ترتضيك زوجا لي يوما ما عن طيب خاطر. أخبرتني أنها تعلم أنني أيضا متعلقةٌ بك. تعجبتُ كثيراً أن تعرف، وتَعجَبتْ هي أن أظنها لا تعرف. نصحتني بالانتباه إلى مذاكرتي، وأن كل شيء بأوان، وأنني وأنت لازال أمامنا ما ننجزه، على الأقل ألتحق أنا بالكلية التي أرغب فيها، ثم تكون خطبتنا، وحين تنتهي من دراستك ثم أنتهى من دراستي يكون الزواج. هذا ما اتفقت عليه مع خالتي، وهى بدورها على الأرجح أخبرتك به.

ما حدّثتك به أنا غير ذلك.. هل لازلت يا ترى غاضباً منى أم سامحتني؟

أنا لا أفهم لم فعلت ما فعلت، ولم قلتُ ما قلت. لا أدرى لماذا خفت. هل خفت منك؟ هل خفت من الحب؟

هل جرّبت ذلك الشعور: أن تشعر فجأة بالخوف لسببٍ لا تعلمه.. ترغب في الهرب بعيداً.. بعيداً جداً.. عن ذلك الأمر الذى يُفترض بك أن تسير نحوه؟

لطالما أبديتُ الصلابة، تفاعلتُ بقوة، تحدثتُ بصرامة.. لطالما بنيت حولي ذلك السياج المنيع، وقد حفظ ذلك قلبي من المتسللين اللاعبين، لكن من أخبره أن يخشاك أنت.. أن يصدّك أنت.. يبدو أن قلبي قد حفظ ولم يفهم!

– مراد.. لا تكرر ما فعلته ثانية.. ولا ترسل لي خطابات سخيفة.

– سخيفة!

– نعم سخيفة.

– سعاد.. أنا آسف.. قد أكون تسرعت أو طريقتي لم تعجبك.. لكنى وجدتها أفضل طريقة أجنّبك بها الحرج.

– من ذكر الحرج الآن ؟ أفهمْ أنا أقول خطابك سخيف وكلامك سخيف!

– يا الله..

– نعم!

– أنتِ تحبيني يا سعاد.. أنا واثق من ذلك.. واثق ولا أفهم لمَ تخشين تلك الحقيقة! ربما لازلتِ صغيرة كما قالت أمي.. ولكن الصغار أيضا لا يتصرفون بهذه القساوة!

– صغيرة! لا يا أستاذ مراد لست صغيرة.. أم أناديك كابتن مراد.. يا كبير!

– أنا آسف يا سعاد.. آسف جدا على خطابي السخيف.. و كلامي السخيف.. أعدك لن أكرر الأمر مرة ثانية .

***

جاء موعد الدراسة، فرحلت إلى الكلية غاضباً مني. صدقني، أنا أيضاً كنت غاضبةً من نفسى. لاحظت أمي الأسى في وجهى فسألتني، فأخبرتها بما فعلت. قالت لي أن الأيام ستنسيك ألم كلماتي، وستنسيني. وأن أمامي الكثير من الوقت لأفهم نفسى جيداً، وأفهم حقيقة موقفي منك .

و قد صدقت أمي..

فأما أن الأيام ستمحو الألم فأظنه حدث. إذ أنك في إجازتك الأولى حدثتني كما كنت دوما تحدثني، بوجهٍ بشوش مُحب. وحين اعتذرت منك عن سابق كلامي، قلت أنك سامحتني بغير اعتذار .أرحتني كثيراً بقولك، ولكن دعني أخبرك على سبيل الاعتراف:

لقد خفت.. خفت لأنك ما رددت قولك بحبي.. ولأنك ما سألتني مرة ثانية.. خفت حينها أن أكون قد خسرتك.

و أما أنني مع الأيام سأفهم حقيقة موقفي منك فقد حدث أيضاً.. بل حدث بشكلٍ عجيب لم أكن أتوقعه.

صرت بمرور الأيام والسنين أحبك أكثر! حباً ناضجاً واثقاً لا يعرف الخوف، ولا يرغب في الهرب. العجيب أنك من كان حينها قد تعلّم

الخوف وتعلم الهرب.. كنت أعد الأيام لتنتهي من دراستك، أقول في نفسي: الإجازة القادمة سيحدثني.. تأتي الإجازة وتنتهي دون أن تخبرني شيئاً.. كنت أبحث في نظراتك عن نظراتٍ لي، في كلماتك عن كلماتٍ تقصدني بها، أتحيّن الفرص لنتحدث علّك تتحدث معي عنّا.. عن حبّنا.. عن مصيرنا.. لماذا تصمت؟!

كان صمتك يفتك بي.. تحملته حتى أنهيت دراستك وتخرّجت.. أتذكرُ حين أتيت مع أمي وحسن إلى بيتكم مهنئين؟

يومها يا مراد انكسر قلبي..

– مبروك يا مراد.. مبروك يا حبيبي.. نراك في أعلى الرتب إن شاء الله..

– الله يبارك فيكِ يا خالتو..

– وأين ستذهب الرتب ! قولي له عقبال فرحك.. هههههه..

– وأين سيذهب الزواج أيضاً يا ماما!

– لكن بنات الناس يذهبن..

– ولماذا؟ هل سينقرض الناس وتنقرض البنات! .. هههههه.. حسناً.. وعد يا ماما.. خالتو تزوج حسن وسعاد وأنا سألحق بهم على الفور.

تحاشيت النظر لي وأنت تقولها، بل وتحاشيت النظر لي بعدها، إذ قمت مسرعاً متعللاً بموعدٍ مع صديقٍ لك. ولو أنك نظرت إلى حينها، لرأيت خيبة أمل كبيرة مرتسمةً علي وجهي. لم أقوَ على التحمل. رغماً عني ورغم الجمع من حولي سقطت دموعاً من عيني.

وحين عدتُ إلى البيت بكيت كثيراً، بمفردي حيناً وفى حضن أمي حيناً. كانت كلماتك تتردد في ذهني فتمزقني..

(خالتو تزوج سعاد)..

وهل تظن سعاد تصلح لشيء بعدما كسرت قلبها ؟.. ياه يا مراد.. كابدت حينها ليلةً قاسية.

***

مرّت شهور، لم تكن حاضراً أغلبها. كنت حينها كثير السفر، وكثير الغياب. تأتى إلى منزلكم أياماً قليلة، تبدو فيها منهكاً.. سارحاً.. كمن يحمل جبالا من هموم على كتفيه.. كثير الصمت.. قليل الضحك.. شديد الرقة واللطف معي حين ألقاك.

لم أكن أفهمك.. لم أفهمك أبداً.. ماذا تريد.. هل تريد أن أجن ؟

- مراد.. ممكن سؤال؟

- تفضلي..

- بصراحة.. ألا زلت كما كنت؟

- كما كنت كيف؟

- أنت تفهمني.. لا تتظاهر بغير ذلك أرجوك..

- ياه.. اتغيرتى جداً يا سعاد!

- أنت أيضاً تغيّرت..

- و لكنك لم تجيبي حين سألتك سؤالا مماثلاً..

- ولن أجيب قبل أن أسمع ردك..

- وأنا أيضاً.. مصرٌّ على موقفي..

- موقفك!

- نعم..

- وأنا أيضاً.. جوابي كما هو.. سلام!

سلام !.. أنا ما ذقت بعدها سلاماً قط..

كدت أجن.. لماذا تتصرف معي هكذا؟ هل تثأر لكرامتك؟ أتنتقم مني.. منى أنا يا مراد ؟!

ليلي.. التي ما أحبت في حياتها سواك.. أصلا، لم تعرف الحب إلا على يديك.. وفى عينيك.. لم تحلم إلا بك.. أنا، من كنت تلاعبها صغيرا، تنتقم منى؟

غابت بهجتي، وأنت سافرت وغبت طويلا. قامت حرب وأنت غائب.. عبر الجيش وأنت غائب.. انتصرت بلادنا وأنت غائب.. تحررت وأنت غائب.. أين أنت ؟!

علمنا من طول الغياب، ومن رسائل الرفاق، أنك قد غبت ليحضر الأمل، غبت لتنبض في شعبنا الحياة.

***

" سعاد.. أخبرتك منذ سنوات أن أحلامنا ليست من صنع أيدينا.. وأنت يا حبيبتي أغلى ما كان لدى من أحلام. حلمي الذى لم أتنازل عنه قط ولم ينصرف عنه قلبي لحظة. سامحينى على صمتي، على غيابي.. سامحينى على رحيلي دون استئذان.. إذا وصلك خطابي هذا سأكون قد

صرت روحاً بذلت حياتها في سبيل شرفنا.. كرامتنا.. في سبيل عزك يا حبيبتي وعز سائر أهلي وأحبائي.. أوصيت الرفاق بإيصاله لكِ في حال استشهادي.. لا لأعذبك بكلماتي، لكن لأخبرك جواب سؤالك :

" ألا زلت كما كنت ؟ "

لأخبرك أنني ما تغيرت لحظة، لكن صمتي كان خشيةً عليك من تعلقٍ بزائل.. نعم كنت أشعر أنني زائل.. كنت أشعر ثم أعود أرسم في مخيلتي صورةً أخرى لم يكتبها القدر.. صورتي بعد النصر وقد نلت نصراً آخر.. نلت حبك وظفرت بك رفيقة عمر.

أما وأن المولى قدّر ختام العمر، فإني أرجوه أن يملأ حياتك فرحا، وأن ينعم أهلي بأمنٍ غبت عنهم في سبيله، وألا يحرمني منك -يا أغلى الأماني- في عالمٍ آخر لا يعرف الفراق ".

جابر

في إحدى الزوايا، تجلس بجسدها النحيل مستندةً إلى الجدار، تراقب بعينيها المرهقتين المقبلين والمدبرين من زوار المقام الشريف؛ مقام سيدنا الحسين.

إنها ليلة السابع والعشرين من شهر رمضان، الزائرون لحضرته كُثر، آتوا وقد حمل كلٌ منهم ما حمل في قلبه من الهم، ليُفضوا به إلى الله في نجواهم وقد جاوروا حبيبه، علّ المحبةُ تشفع، فينقشع الهم ويسكن القلب.

أما سكينة، سكينة بنت عبد المعبود الذى لم تره قط منذ أن كانت طفلةً في السابعة من عمرها، لا تعرف على وجه التحديد ما الذى يُجلسها هنا.

يُفترض أن تكون الآن في بيت سيدها بالصالحية، الحاج جابر رحمه الله، الذى توفى منذ يومين ولا يزال أبناؤه يتلقون العزاء فيه. فلاشك أنهم في أمسّ الحاجة لها لخدمتهم وخدمة المُعزين وزوار بيتهم.

ولكنها بينما كانت هناك منذ قليل تساعد كبرى بناته في بعض المطبخ، هالها ضحكاتها المكتومة ومزاحها مع شقيقتها الصغرى بعيدا عن أعين الزوار، ثم خروجهما سوياً إلى الضيوف وقد تظاهرتا بالحزن وأسكبتا الدمع غزيراً من أعينهما وكأن ضحكاً لم يكن بالداخل، ففزعت من رُخص الإنسان على الإنسان، وهوان الوالد على بنيه، فاستأذنت متعللةً

بالتوجُّع المصطنع أن تغادر البيت، فسمح لها أهله، فتوجهت لفورها من الصالحية إلى الحسين، وها هي تجلس في حجرة المقام منذ نصف ساعة تقريبا، لا تعرف شيئا تفعله سوى البكاء.

الحاج جابر.. كان وحده من بين الخلق جابراً لخاطر سكينة.. رجلٌ طيب ومن نسلٍ طيب، فقد خدمت أمها والديه وخدمته دهراً طويلا فلم تجد منهم سوءاً قط.

وعندما هجر أبوها عبد المعبود أمها فجأة وتركهما وحيدتين، أصرّت أسرة الحاج جابر أن تسكن أم سكينة وابنتها سكينة معهم ببيتهم الكبير بالصالحية، فالأسرة ميسورة الحال، يمتلكون ورشةً صغيرة لصناعة الحُلى ومحلاً لبيعها، والابن جابر يعمل مدرس لغة عربية، متزوج وله ابنتان وولدان، يسكنون جميعا في بيت الجد والجدة اللذين لم يكن لهما من الأبناء سوى جابر.

عاشت سكينة في ذلك البيت وشبّت على خدمة الأسرة كأمها، فكان لوجودها بينهم أثرٌ كبير عليها وعلى تنشئتها.

فلقد كان جابر شديد العطف عليها، ويعاملها بلطفٍ كما لو كانت إحدى بناته.. عندما كانت في طور الطفولة كان يشترى لها الحلوى والفساتين، وعندما بدأت في طور المراهقة بذل جهداً كبيراً في توجيهها وتربيتها محاولاً أن يعوضها حنان الأب الذى تركها. مأساة المراهقة الأبدية أن الحنان لا يُفهم أبوياً قط. أحبت سكينة الحاج جابر، وتمنت كثيرا في قرارة نفسها لو كانت في موضع زوجته لتعوضه عن جفائها وقلة أدبها معه حباً واحتراماً.

" كيف تجرؤ هذه على الصراخ بوجهه ؟! كيف تجرؤ على سبه؟ إن رجلا كسيدي جابر لا يستحق سوى الهيام به ".

كانت محقة في تفكيرها..

فإن رجلا بوسامته وسعة فكره وحسن خلقه لا يستحق زوجةً جافية، خاوية، سليطة اللسان مثل زوجته.

ولكنه ارتضى قدره معها باستسلام لم تفهمه سكينة أبداً. ظلت حيناً تظن أنه مغرماً بها، وإلا فلماذا يحتمل بشاعتها هذه ؟ ثم فطنت مع تقدم العمر ألا علاقة لاستسلامه هذا بمحبتها، فهو لا يكون رائقاً مبتهجاً إلا في غيابها أو حين ينفرد بنفسه للقراءة أو العبادة أو حين يجلس محتضناً أحد أبنائه.

أدركت بتقدم العمر عدم جواز التفكير به سوي أبا حنونا لها، وارتضت تلك النعمة الكبيرة.

لم تنسَ أبداً عتابه الشديد لها يوم شاهدها في أحد أزقة الحارة برفقة إبراهيم البقال، كانا يجلسان ملتصقين وقد أحاطها بذراعه، فلم يكد يقترب منهما الأستاذ حتى قفز إبراهيم واختفى كفص ملحٍ وذاب، تاركاً سكينة ترتجف من الخوف، فانخرطت في البكاء..

- أ.. أستاذ جابر أنا..

- شوفتي.. أهو جرى وسابك يا سكينة..

- أنا آسفة.. متقولش لأمي.. أنا والله ما أ..

- عالبيت دلوقتى وهناك نتفاهم .

سارت بجواره، منكسة الرأس تتمنى لو تنشق الأرض فتبتلعها. تُرى هل يخبر أمها؟ لن يمر الأمر مرور الكرام، ستضربها وتمسح بها الأرض، وليس بعيداً أن تحبسها في البيت فلا تعود ترى الشارع مجددا.

– اقفلي الباب يا سكينة وتعالى اقعدي .

دخلت إلى حجرة الأستاذ جابر، وجلست على الكرسى المقابل له. ظلت ناظرةً إلى الأرض تتساقط من عينيها الدموع إليها حتى بادرها بالكلام..

– قبل أي حاجة عايز أعرف، بتقابليه ليكى قد إيه وأما بتقابليه بتعملوا إيه بالظبط ؟

– مش من كتير يا أستاذ من شهر بس، وأما بنتقابل بنبقى زي ما شوفتنا كده مش أكتر والله العظيم..

– على أساس اللي شوفته ده هين وقليل.. ها.. جاوبينى ؟

– أنا آسفة..

– اعتذري لنفسك.. شوفتي جرى إزاى لما شافني ولا كأنه يعرفك.. ليه كده.. ها.. ليه؟.. قالك بيحبك؟ قولي متتكسفيش أهو طلع بيضحك عليكي!

– أيوة عرفت إن محدش بحبني، وإن كل الناس بتمشى وتسيبني.

انهمرت في نوبة بكاء عنيفة.

– أنا مقولتش كده..

– من غير ما تقول يا أستاذ مش ده اللي حاصل ؟

– لا طبعا مش ده.. هية أمك مش بتحبك؟.. أنا يا سكينة مش بحبك؟.. أنا زي أبوكى يا بنتى وعمرى ما هسيبك أبداً .

أمسكت بيده لتقبلها فأسرع بإبعادها.

– أ

– اوعديني يا سكينة.. أوعدينى إن اللي حصل ده عمره ما يتكرر لا مع إبراهيم ولا غير إبراهيم لحد ما أشوفك عروسة مع اللي يستاهلك.

– أوعدك يا أستاذ.

و قد صدقت سكينة في وعدها، فكان ذلك مما أفلح فيه معها بالتربية.

أما ما فشل فيه، هو أنه– علي سبيل المثال– لم ينجح في جعلها تواظب على الصلوات المفروضة كما كان يتمني. لطالما حثها، ورغّبها ورهّبها، وأوقفها خلفه وصلى بها إماما، لكنها حين كان يغيب عن البيت لم تكن تقرب الصلاة من تلقاء نفسها أبداً. فاجأها أن علمت أن أستاذ جابر يعلم ذلك، فلقد طرق الباب عليها ذات يوم ففتحت له..

– أزيك يا أستاذ جابر تؤمر بحاجة ؟

– البسى هدومك وتعالى معايا يا سكينة عايزك فى مشوار..

– أمرك، دقيقة وأكون جاهزة.

سارت بجواره، في الحارات والأزقة التي تعرفها وتحفظها أكثر مما تحفظ اسمها، حتى وصلا إلى مسجد الحسين.

– عارفة يا سكينة مين مدفون هنا؟

– طبعا يا أستاذ.. سيدنا الحسين..

– أيوة.. راسه الشريفة مدفونة هنا بس جسمه لأ.. ما هو لما أتقتل فصلوا راسه عن جسمه..

– يا ساتر..

– شوفتي.. محدش سلم من الابتلاء ولا من ظلم البشر.. طب عارفة إنه كان له بنت اسمها سكينة زيك ؟

ابتسم لها.. فابتسمت.

– قولي لى يا سكينة.. زعلانة من ربنا ليه ؟

– استغفر الله يا أستاذ، أزعل من ربنا إزاى يعنى ده كلام..

– هوة كلام عجيب، فعشان كده أنا مستغرب إنك زعلانة، وما بتصدقى أبقى مش موجود عشان متقفيش تقابليه..

– أنا بس.. ببقي.. ببقى تعبانة.. أنت عارف يا أستاذ شغل البيت مبيخلصش وأنا..

– طبعا أنت بتقولى في بالك وهوة عملي إيه ولا أدانى إيه.. لا أدانى أب.. ولا غني.. ولا جاه.. مش كده ؟

بس عارفة.. أنا واثق إنه إدالك كتير.. إدى كل خلقه كتير.. أنتى قلبك أبيض، ومطيعة، ومخلصة، وربنا شايلك خير هنا أو عنده.. أنا عارف أنك زعلانة، وبتسألى نفسك وبتسألیه لیه یارب.. أنا أكتر واحد فى الدنيا عارفك وحاسس بيكي.. خليكي واثقة من كده.

تساقطت دموعها بعد مغالبة لم تطل.

– خسارة يا سكينة.. قربي من ربنا متبعديش.. مش هتلاقى أحن من

ربنا عليكي.. وأنا مش دايملك.

– بعد الشر يا أستاذ جابر.. انشالله عدوينك.. ربنا يجعل يومي قبل يومك.

– ربنا يديكى العمر يا سكينة، أنت لسه معشتيش ولا شفتيش دنيا. بصي.. أنا هطلب منك طلب..

– أؤمر يا أستاذ..

– اللى أنا هطلبه منك ده طلبته من عيالي في يوم من الأيام محدش طاوعني فيه، لا بنات ولا أولاد، بس أنت هتطاوعينى للخير اللي فيكي.. عارفة يا سكينة.. أنا كتير بدعى ربنا وأقوله يا رب حنن قلب عيالي ويحبوني زي ما سكينة بتحبني..

– –أمرك..

– أنتى طبعا عارفة أنا قد إيه بحب أجي هنا، أسعد لحظات عمرى بقضيها هنا، باجي أصلي.. أحضر ذكر.. أسقى المصلين.. أغسل السجاد وأنضفه.. كذا مرة غسلت الحمامات.. آه متستغربيش.. إحنا عايشين كل واحد فينا زي الطور في الساقية، بنخدم في شهواتنا وعيالنا، وبنخدم اللى فوقينا، فيها إيه لو نخدم مرة لله.. فيه إيه زي ما بنخدم كل الناس نخدم عند ولد سيد الناس ؟

– معاك حق يا أستاذ..

– اعملى زيى يا سكينة وابقى تعالي، أنا مش هاخدك من إيدك وأجيبك مبقيتيش صغيرة، لو عايزة فعلا تبطلي تزعلي من ربنا وتعرفي إنك ملكيش غيره ابقى تعالي، تعالى صلي، تعالى أقفى جنب الحسين

وصلى على النبي، وادعى لنفسك، إنتى طيبة وفيكى خير وحاسس إن ربنا هيستخدمك لخير كبير..

– حاضر يا أستاذ.. أوعدك إني هاجي دايما.

وقد كانت حاضر التي قالتها حينئذ من أجل خاطر الأستاذ، لا الحسين، لكنها صدقت في وعدها. لا يمر شهر دون أن تأتى إلى المسجد. في البدء كانت تمتثل للأمر فحسب، ثم ما لبثت أن ذاقت سر ذلك الفضل العظيم الذى دعاها الأستاذ إليه..

فلقد رأت الأثرياء والشحاذين، الأصحاء والمرضي، الصالحون والماجنون، الكل يأتي هنا ويبكي. الكل يطلب من الله، ولا أحد قد شعر أبداً أن ما قد أُعطى يكفيه، ولا استغنى بما أُعطى عما فقد. فهمت إذن أنها ليست وحدها من فقدت، وتأدبت فعرفت أن ما عند الله لن تناله بالغضب منه بل بالبكاء بين يديه.

اعتادت المسجد وأحبته، وصارت الزيارة الشهرية أسبوعية.

في إحدى الليالي الوترية، من العشر الأواخر من شهر رمضان، في إحدى السنين، بينما كانت تجلس بالمسجد تقرأ القرآن، رأت تلك المرأة التي لن تنس وجهها أبدا. امرأة في عقدها الثالث تصطحب معها طفلين، أقبلت عليها وقالت:

– ادعيلي.. أنا اسمى سلمي.. ممكن تدعيلي..

– ربنا يديكى ويحقق طلبك قادر يا كريم..

– ادعيلى أعيش، أنا عيانة.. لو جرالى حاجة مين يربى دول ؟

انهمرت المرأة في البكاء، فاحتضنتها سكينة وهدأتها.

– هتعيشى يا حبيبتي.. وهتيجى وهتقابلينى بعد سنين وهقولك شوفتي.. هتعيشى وهتربى عيالك.

رفعت سكينة كفها إلى السماء وأغلقت عينيها الباكيتين لبكاء سلمي.. قرأت الفاتحة، ثم رفعت يديها ودعت :

يا رب.. يا قادر.. يا مدبر الحيل.. خليها لعيالها يا رب.. أسألك بعزتك وجلالك.. و بجاه حبيبك محمد وآله.. اشفيها يا رب.. أمّن يجيب دعوة المضطر إذا دعاه ويكشف السوء.. أمّن يجيب دعوة المضطر إذا دعاه ويكشف السوء.. أمّن يجيب دعوة المضطر إذا دعاه ويكشف السوء..

مرّت الأيام، رحلت أمها فازدادت وحدتها وازداد حنان الأستاذ. في الواقع كان حنان جابر دوما في ازدياد، خاصة أن جفاء أبنائه الأربعة وعدم تقديرهم له الذى ورثوه وتعلموه من أمهم قد أشعره بالوحدة والخيبة، فكيف لا يصب حنانه صباً على الوحيدة التي تقدر ما يفعله وتمتن له ؟

ثم أتى حميدة خاطبا لسكينة. لم تعرف حينها ماذا تقرر، ولأول مرة منذ سنين شعرت بدبيب الحب القديم في قلبها للأستاذ جابر الذى صار يُنادى الحاج جابر.

كيف تتركه؟ أتعبتها الفكرة جدا..

– طبعا يا سكينة الرأي رأيك، حميدة مش بطال لكن المهم إنتى حابة إيه ؟

– أنا حابة أفضل جنبك..

– وإنتى هتفضلى بنتى والبيت ده هيفضل طول عمره بيتك، بس دى سنة الحياة وإنتى محتاجة يبقى ليكى زوج وبكرة تجيبي عيال ويبقى ليكى أسرة، ساعتها هتنسى الحاج جابر طبعا هههههه.. بس مش مشكلة، أنا سعادتى إنى أطمن عليكى وأشوفك مبسوطة..

– بس أنا سعادتى إنى أفضل جنبك .

ارتبك. هو يفهم كل شيء، منذ سنين.

– الإنسان لازم يعيش الواقع يا سكينة ويتكيف معاه، ولازم كمان ميتغافلش عن احتياجاته الفعلية ويتعلق بوهم..

– وهم؟ أنا محبتش في حياتي غيرك وأنت يا سيدى مش وهم.. أنت أجمل حقيقة في الحياة.

لمعت عيناه من الدمع.

– اسمعيني.. أنا يا سكينة أبوكى اللى رباكي.. وأنا الحاج جابر.. الحاج.. وإنتى بنتى الشابة الجميلة.. أجمل بناتي وأحن قلب في الدنيا عليّا.. ده الواقع.. أنسب واقع وأجمل واقع.. صدقيني.

وافقت سكينة على حميدة، فكان ذلك آخر عهدها براحة البال..

تزوجته، وتركت بيت الأستاذ إلى بيته. أذاقها حميدة كل صنوف الذل، إهانات وشتائم وضرب، سوّد حياتها فلم تعد تعرف إلى الفرحة سبيلا. أنجبت منه أثناء ذلك (هدي) و (فاطمة) فصارت مصيبتها أعظم، وهمها أكبر. لا ينفق على بناته، ولا يريهن وجهه إلا حين يأتي

ليأخذ منها مالاً بالقوة.. صارت حياتها جحيماً لا يُطاق.. لكنها- رغم كل ذلك - كانت تطيق وتصبر. ظلت على صبرها هذا سبع سنين، حتى عرفت من إحدى جاراتها ذات يوم أنه متزوجٌ عليها، فكانت تلك القشة التي قصمت ظهر البعير.

هاجت وملأت الدنيا صراخاً وأمطرته سباباً، فلم يبال لحرقة دمها، بل قال لها ضاحكا مستفزاً إياها:

- طب إيه رأيك إنها حامل في واد.. سامعة يا خايبة.. موتى بقى بغيظك وورينى هتعملى إيه !

وبالفعل، كادت أن تموت حينها بغيظها.

لم تعرف ماذا تفعل، ولم تشكُ لسيدها الحاج جابر، فإن أبنائه يذيقونه من الأسى ما يكفيه، ولكن الذى تعرفه.. أنها شيئا فشيئاً.. قد عادت لسابق سخطها على ما جرت به المقادير، فلم تعد تزور الحسين، وشيئا فشيئا تركت صلاة فروضها.. غضبت من القدر الذى حرمها من الحاج الجابر وابتلاها بحميدة من غير إثم تقترفه.. لماذا يا رب؟ لم تعد سكينة تؤمن بجدوى شيء.

- اتقى الله يا سكينة.. اتقى الله وتوبي.

كان ذلك آخر ما قاله لها الحاج جابر قبل وفاته، تذكرت قوله الآن بينما تجلس في مسجد الحسين في ليلة السابع والعشرين من رمضان، بعد غياب طويلٍ عنه.. غياب طويل حدث فيه الكثير، وأحدثت فيه الكثير.. أيامٌ من السخط ظنت أنها قد محت أعواماً من الإيمان.

تذكرت ما قاله الأستاذ قبل وفاته فانتفضت.. ثارت في نفسها الأسئلة والشجون، فلم تعد تعرف إلى التحكم في دموعها سبيلاً.

" كيف عرف.. أنا لم أخبره.. فكيف عرف؟!

و ماذا عرف ؟ هل عرف أنى تركت صلاتي فقط؟ أم عرف أيضاً أنني قد تخليت عن كل أدبٍ، وتجردت من كل حياء! هل يا ترى عرف أن سكينة التي أدبها يوم رآها بصحبة إبراهيم باتت تحادث (جمال) ليلا في التليفون ليتغزل في جمالها ومفاتنها فتنتشى بما لم يسمعها حميدة.. يذهب جمال فترافق (بدر) لتقضي معه وقتاً من المتعة بعيداً عن الحارة وأهلها.. ثم يذهب بدر ويأتي (برعي).. يا مصيبتي! ".

لطمت وجهها، ثم تنبهت إلى وجود بعض الناس ينظرون إليها متعجبين فكفت عن اللطم، لكنها لم تملك أن تمنع لسانها عن الكلام..

" يا رب.. سامحني.. حميدة كرهني في عيشتي.. كرهني في نفسى وكفرني.. سامحني يا رب.. أنا مليش غيرك.. الحاج جابر سابني.. و بناتى ملهمش غيري.. و أنا مليش حد.. أروح لمين مليش غيرك.. سامحني يا رب واعفُ عنى واسترني.. يا قادر.. يا مدبر الحيل.. دبر لي حالي وأجب سؤالي.. متسيبنيش لحالي يا رب.. و سامحني.. أنا مستاهلش تجيب دعايا بس أنت المجيب يا رب ولو أنا مستاهلش.. أمّن يجيب دعوة المضطر إذا دعاه ويكشف السوء.. أمّن يجيب دعوة المضطر إذا دعاه ويكشف السوء.. أمّن يجيب دعوة المضطر إذا دعاه ويكشف السوء.. يااارب".

غرقت في النحيب حتى كادت تلفظ أنفاسها من شدته. انحنت رأسها نحو الأرض.. فأقبل نحوها وجهٌ رأته منذ عشر سنين ولم تنسه قط.. وجه سلمي. جلست بجوار سكينة وضمت رأسها إلى صدرها مرددة:

– آمييين.. آمين يا رب.

نصيب

التاسع والعشرون من ديسمبر عام ألفين وستة عشر، هذا هو تاريخ اليوم.

قد يمر كسائر أيام عمري البالغ أربعا وثلاثين عاماً بغير جديد يُذكر، وقد يكون بداية جديدة لحياة جديدة آملُ -إن أتت- أن تحمل الخير معها..

علي أية حال لا داعي للاستعجال، أو الإغراق في التفكير فيما تحمله المقادير، لا داعي أبداً.. فلئن كان ما أرجو ليس بواقع فلم أستعجل انهزام أملي ؟

ولئن كان ما رجوت في طريقه إليّ فليأت علي مهل.. أنا ما عدت يؤلمني الانتظار.

غريبٌ أن تُغيّر الحياة فينا إلي هذا الحد!

هذا الذي أفعله الآن مثلا ما كنت لأفعله في عامي الثالث والعشرين.. أتذكر أني حين كنت أدخل إلي المطبخ لأعد فطوري قبل الذهاب إلي الجامعة، ذلك الفطور المكوّن من شريحة عيش بالجبن وشريحة بالعسل وكوب اللبن بالقهوة، كنت أُعد شرائح العيش بالجبن والعسل أولاً، ثم أضع اللبن علي النار لتدفئته، وبينما النار تقوم بواجبها ألتهم الشرائح علي عجل، فحين تنتهي النار من عملها أكون أنا انتهيت من التهام طعامي، فأرفع اللبن من فوق النار وأفرغه في الكوب، وأذيب فيه القهوة والسكر،

وأشرب الكوب كاملاً في الطريق من المطبخ إلي باب الشقة فأنتهي منه وأغادر البيت مسرعةً. كانت أمي تقول لي:

لماذا لا تعدّي فطورك كاملاً ثم تجلسين لتناوله باستمتاع بدلا من هذه الهرجلة!

فأخبرها أن الهرجلة تليق بي، وأنني لا أطيق الصبر ولا الانتظار، واليوم – بعد مرور عشرة أعوام علي زمن انعدام الصبر– صرت أتقنه، تماماً مثل أمي التي عاشت حياةً هي حلقاتٌ من الصبر متتالية؛ صبرٌ علي فقد الابن والزوج في مقتبل العمر، وصبرٌ علي المرض، أيصعب عليها الصبر لحظات عند إعداد الفطور؟!.. صرت صابرةً مثل أمي، أُحضّر الفطور علي مهل، وأتناوله علي مهل المهل.. إن حياةً خالية من كثرة المباهج كحياتها تحث الإنسان علي محاولة التلذذ بأقصى درجة ممكنة من متعه القليلة فيها.. وحياتي أصبحت كحياتها.. أليست متعة الطعام هذه إحدى متعي القليلة في الحياة؟

***

(اسمها سمية.. أربعٌ وثلاثون عاماً.. وحيدة والدتها.. توفي أخوها ووالدها الذي كان يعمل مهندساً بقطاع البترول في حادث حين كانت في العاشرة.. تعمل محاسبةً في إحدى الشركات الخاصة.. حسنة السمعة.. خُطبت مرة واحدة حين كانت في السادسة والعشرين وانفصلت بعد ستة أشهر.. المستوي المادي جيد.. لم أسمع عنها وعن أمها سوي كل خير.. علي قدر معقول من الجمال. علي أية حال ستراها وتحكم).

كان ذلك ما أخبر به إبراهيم ابن أخيه مدحت منذ أسبوع، مدحت الذي لا يعجبه العجب كما يقول له دوماً! لقد تردد كثيراً قبل أن يحدّثه عن سمية، فأهل البنت جيرانهم منذ انتقل إلي هذه العمارة، ليس لزوجته اختلاطٌ كبير بأمها إذ أن الأخيرة قليلة التفاعل غالباً، وقضت عمرها منكبةً علي رعاية ابنتها سمية بعد وفاة زوجها، ولكنها بشكل عام سيدة محترمة لم يصدر منها سوءا قط، وإن سبب التردد الذي شعر به إبراهيم هو أنه يعرف ابن أخيه و (عوجه) كما يقول دائما، فأي فتاة هي إما قصيرة زيادة عن اللازم أو طويلة زيادة عن اللازم، أو سمراء لا يعجبه سمارها أو بيضاء لا يحب بياضها، أو أنفها طويل أو عريض، أو أي شيء.. أي شيء.. المهم أنها لا تناسبه!

– أنا لا أحب أن أسبب جرحاً لهذه الفتاة.. ولكن يعلم الله أنني ما قصدت إلا خيراً.. من يدري..

– أنا متفائلة يا إبراهيم.. خير إن شاء الله..

– أتمني أن أغمض عيني وأفتحها لأجد الساعة الثامنة مساءً قد أتت وتم اللقاء، وعاد منه مدحت راضياً مثل خلق الله.. فيتصل بي ويقول:

– كلّم والدة سمية لنجلس ونتفق علي التفاصيل..

– الله..

– هداك الله يا ابن أخي !

ناولته زوجته فنجان القهوة، وهي تؤمّن علي دعائه.

***

– لست متفائلا.. لا أدري لماذا.

قالها ثم نفث دخان سيجارته ببطء، وهو ينظر إلي صديقه منتظراً رده، لكن الصديق أطال النظر ولم ينطق بكلمة، شعر مدحت بما يجول بخاطره، فواصل الحديث قائلاً:

– أنت تسبّني في عقلك.. أليس كذلك؟

– بالضبط!

انفجر الرجلان في الضحك، ثم عاود الصديق تماسكه واستجمع قواه ليتحدث..

– ألن تكف عن جنونك هذا يا مدحت؟!

يا أخي قد صرت في السادسة والثلاثين، لماذا لا أجد فيك مسحةً من التعقُّل في تناول الأمور؟

– تعقُّل!.. هذا هو مفهومك إذن عن العقل؛ أن يتزوج الرجل من امرأةٍ لا يرتاح لها أو لا تناسبه.. عين العقل فعلا!

– يا مُثبّت العقل والدين يا رب!.. لا تناسبه ولا يرتاح لها وهو لم يجلس معها ولم يتحدث إليها بكلمة واحدة حتي الآن !.. إن لم يكن هذا هو الجنون بعينه فماذا يكون إذن؟

– ألم أذهب لرؤيتها بالأمس وهي ذاهبة إلي عملها؟ ألم تكن معي يا مستفز؟!

– نعم كنت معك.. وذهبنا رغم عدم اقتناعي بجدوي أن تراها علي

بعد أمتار في تحديد أي شيء، خاصةً أن موعد اللقاء المحدد هو اليوم التالي.. تصرُّف لا جدوي منه سوي أنه أعطاك الفرصة لتمارس جنونك الآن..

– وما رأيك فيها ؟

– هههههه.. أمرك عجيب والله.. رأيي في ماذا؟.. لقد رأيناها لمدة ثلاث دقائق وهي تسير من باب العمارة إلي باب السيارة.. لكن إن كنت تقصد انطباعي عن مظهرها فلقد رأيتها فتاة جميلة حقاً..

– مممم..

– هل يمكن أن تكف عن تفكيرك العبقري هذا وتؤجل أحاسيسك إلي ما بعد اللقاء ؟.. يجب أن أذهب الآن، لقد وعدت منة أن أصطحبها لشراء بعض الأشياء..

– منة حبيبة قلبي.. أليست الآن في الخامسة عشر؟ ما رأيك أن أنتظر أعواماً قليلة وأتزوجها ؟

– يا أخي لو كنت آخر رجل في العالم سأرفضك !

– هههههه..تسلم يا أبو منة..

***

لماذا يحدث أن ننسي شعوراً ما فتأبي الحياةُ إلا أن تذيقنا إياه مراراً وتكراراً؟

طبعاً، هو قدر الله.. وأنا يا رب أؤمن بحكمة قدرك، لكن الإنسان

حين يستبد به الألم لا يملك سوي أن يتألم. يحزنُ القلب، ولا أقول إلا ما يرضيك يا رب.. سامحني.

بعض أفعال الخلق.. لا، الكثير من أفعال الخلق.. ليس لها تفسيرٌ منطقي.

كريم مثلا. لماذا – فجأة – بغضني؟

الظاهر للناس أنني تركته، لكنه يعلم تماماً أن هذا ما كان إلا تلبية لرغبته الخفية؛ خفيةٌ عن الآخرين، باديةٌ لي كنور النهار. إن لم يكن يبغضني لماذا صار يتشاجر معي من أجل أشياءٍ تافهة كألوان الستائر والسجاجيد وأين نضع الأنتريه وأين نضع السفرة؟ لماذا كان يتأفف حين أحدثه عن أي شيء.. عن العمل فيقول "لن ننتهي من الحديث عن الشغل!"، عن أمي فيقول "لماذا تشعريني أن أمك هي المضحية الوحيدة في العالم؟ "، عنّي فيسكت ولا يقول شيئاً. لماذا فعل ذلك معي؟ لم أفهم، ولكني فهمت الرسالة فاستجبت، ولم يتفاجأ، إذ كان يعلم أنني لست غبية كما كان ينعتني أحيانا علي سبيل مزاحه الثقيل..

وهذا المجنون الذي قابلته اليوم، لماذا جاء أصلا ليجلس معي؟

لقد رأيته بالأمس، لم أكن أعرف أنه هو ولكني عرفت الليلة، كان يجلس في سيارته وبجواره شخص آخر، ينظر لي من فوق لتحت، وكأنما يتفحص تفاصيلي ليطبعها في ذاكرته، والليلة حين جلسنا سوياً لم أفهم ما هذا بالضبط.

كان يتحدث بملل شديد، وينظر كل دقيقتين في ساعته وكأنما يعدُّ

اللحظات عدّا لينتهي عذابه بجلوسه معي. حاول عمو إبراهيم وزوجته أن يحفزا حديثاً بيننا علي الانسياب، لكنه ظل متحفظاً، وبدا في أعلي درجات التأفف. أخرج هاتفه المحمول وظل ناظراً فيه، وبقي علي حاله هذا حتي رأيته يشير لعمه. فهمت أنه يستعجله للانصراف، لكن عمو إبراهيم بدا مرتبكاً؛ إذ يُفترض ذوقاً ألا يبديا نية الانصراف قبل أن تبدي أمي، لكنه لم يبال لارتباك عمه وقام من جلسته قائلا:

– أنا مضطر للانصراف فلديّ موعد ليس بإمكاني تأجيله.

أمام وقاحته، لم يجد عمو إبراهيم وزوجته مفراً، فاستأذنا أمي في الانصراف، وسارا معه وقد بدت علي وجه عمو وهيئة سيره رغبةٌ عارمة في سب هذا الأحمق وركله.

أما أمي، فقد ظلت جالسةً في مكانها لا تنطق بشيء لمدة دقيقتين، وكانت تتحاشي النظر لي بشتّي السبل. كنت أعرف ما يدور برأسها، ويمزقني هذا الذي أعرفه. قطعت الصمت قائلة:

– لنقم يا ماما ؟

– لنقم يا حبيبتي..

لقد رآني بالأمس ورغم ذلك أتي، مما يعني أنني لست بالبشاعة التي أشعرني بها الليلة!.. نعم، لقد جعلني أشعر أنني لا أُحتمل ولو علي سبيل المجاملة لمدة نصف ساعة ..

أنا لست منزعجة لضياع عريس أو فرصة زواج، لا..

أنا ما عاد يزعجني ذلك فقد اعتدته، وما عادت تؤرقني أصلاً وحدتي، فقد وطدت نفسي عليها؛ فكراً وقلباً وجسداً، وفي كل مرة قلت لا لم أندم، وفي كل مرة قيل لي لا لم أيأس، شيئان فقط مزّقا قلبي، شيئان لم أعرف ألا أبكي لحدوثهما:

تصرّفه الذي أهانني، وخيبة أمل أمي.

***

قد كان الظلام من حولي حالكاً، حتي ملأ نورك ربوع حياتي.

لقد عرفته، ذلك النعيم الأسطوري الذي حسبت ألا وجود له سوي في الروايات الحالمة وخيال الشعراء، معك ذقته.. فارتويت، بك ارتويت، يا بهجة عمري.

ماذا فعلت من الخير ليجعلك الله نصيبي؟.. أم هو محض كرمه، أراد أن يفيض به عليّ وعلي ابنتي المسكينة؟

مرّ عامٌ علي زواجنا، ولازلت في كل مرة احتضنك تجتاحني رغبةٌ لا إرادية في البكاء، تلك الرغبة التي لم أقدر علي مقاومتها ليلة زفافنا حين احتضنتك أول مرة، فانهمرتُ وانهمرتِ، ثم ضحكتُ وضحكتِ، ولا تزال دموعك وضحكاتك تملأ حياتي دفئا وفرحاً إلي اليوم.

عجيبةٌ تدابير القدر، حين تفجعنا عجيبة، وحين تُفرحنا عجيبة، هي دوماً تأتي بما لم يكن في الحسبان..

لقد عشتُ حياةً لم أكن لأتصورها في أبعد خيالي.. لم أكن أتصور أن أتزوج في الخامسة والعشرين ليجيء عامي السادس والعشرين وأنا

أرمل، فقد زوجته وهي تلد ابنته التي لا يعرف كيف سيتولّى أمرها بمفرده!

سيناريو لم يرد في أسوأ كوابيسي..

تألمت لفراقها، وكابدت تبعات الفراق. خمسة عشر عاما تبدّل فيها حالي.. شاكر الذي كان بالأمس طفلاً يتدلل علي أمه أصبح لابنته الأب والأم، خمسة عشر عاماً عشتها مشفقاً علي ابنتي منة التي أتت إلي الدنيا فلم تجد حضن أم تأوي إليه، وعلي نفسي وحيرتي..

تعلمت قص الحواديت وأغاني الأطفال والتحدث بلسان الدمية المفضلة لابنتي.. تعلمت تسريح الشعر واختيار لون التوكة المناسب للفستان الذي ترتديه.. تعلمت أن أقضي قرابة ساعة أنصت لها وهي تحكي تفاصيل خصومتها مع صديقتها في المدرسة.. تعلمت الربت علي الكتف والقبلات بغير مناسبة ودلال الكلمات.. تعلمت حنان الأمهات، ولكنها تكبر.. وأنا لست بأم!

لن تحكي لي أبداً عما تتحدث به الفتيات صاحباتها في أحاديثهن السرية، ولا عن ذلك الولد الذي سيحاول إيهامها بحبه، أو الذي قد ترسمه في خيالها حبيباً لها.. كم أتعبني أن أري ابنتي التي كرّست عمري ساعياً ألا تصير مثلي تصير مثلي، في صمتها ووحدتها بمرور الأيام أصبحت تشبهني. عزاؤها أني لم أكسرها بزوجة أب في طفولتها تُبدي المحبة وتكن في قلبها قساوة، أو آتي منها بأطفال ينعمون بأمومة حُرمت هي منها فتزداد في قرارة نفسها يتماً علي يتم.

كابدت، حتي بلغت عامي الأربعين.

لم أعرف خلال هذه الأعوام كيف يعود المرء من عمله ليجد من تسأله كيف كان يومه، يحكي لها عن إنجازه فتتيه به، وعن انكساره فتخبره أن كل أمرٍ يهون ما داما معاً وبخير، أو تهمس ليلاً في أذنه أنها لا تزال تحبه، برغم كرشه الذي تدلي وشعره الذي تساقط وعصبيته التي لا تحتمل، لا تزال تحبه. حرمانٌ ينهش أيامي.. ينخر في عظامي.. ويُجمّد في العروق دمي.

ما الذي حدث؟ وكيف حدث ؟

هو قدر الله الرحيم، ساقه إليّ، وساقني إليه..

من كان يتصور أن الملاك الذي رآه رفيقي مدحت فحُجبت عن عينيه أنواره، يسطع في عيني أنا، فيصرفه عنه، ويجذبني إليه؟

هل تصدقيني إن قلت من اللحظة الأولي أحببتك يا سمية ؟

أنا أيضاً لم أكن لأصدق أحدهم لو أخبرني بذلك، ولكني أقسم لك : أحببتك منذ اللحظة الأولي..

حين كنت بجواره في سيارته، حين لمحتك، شعرت بالسرور يدخل إلي قلبي. وحين قال لي بعد لقائكما (محصلش نصيب)، راودني في الحال شعورٌ لم أستطع مقاومته؛ أنك نصيبي.

قادني شعوري فانقدت، وما ندمت قط علي انقيادي، بل بدد حنانك قسوة مخاوفي، وروي حبك ظمأ قلبي وقلب ابنتي..

كل عام وأنتِ معي.

سفر

ستسافر يا عُمَر غداً.. سافرْ.

لقد أقسمت ذلك اليوم حين تشاجرنا وشكوتني لأهلي ألا أتحدث معك في الأمر مرةً آخري، لكن قلبي يحدثني الآن أن أعود فأستجديك، وإن كنت في ذات الوقت أسأل نفسي:

ما الفائدة؟

أعرف أنك أخذت قرارك منذ زمنٍ بعيد ولن تعود فيه. نعم.. كان قرارك.. ليست الظروف كما تزعم.. أنت لا حاجة لك بي، أو لأكن أكثر دقة: أنت لا حاجة لك بي زوجةً لك.

تحتاجني هنا لأرعي الأولاد، وأحرس البيت، وأكون واجهتك أمام الأقارب؛ أُعيِّد عليهم بالنيابة عنك، وأزور مريضهم بالنيابة عنك، وأحضر الأفراح والجنائز بالنيابة عنك. أكون نائبتك أمام الناس، أنا لَك أمام الناس.. فَمَن لي؟

وإن ما يؤلمني منك زُهدك فِي، و أنا ما زهدت فيك أبداً..

أذكر أيامنا الأولي، حين كنت هنا معي:

أستيقظ فألقي وجهك و نبيت في المساء في بيتٍ واحد. كُنّا نمرح ونتشاجر.. نفرح ونحزن.. نهمس ونصيح...نتبادل كلمات الحب والشجار.. كُنّا زوجين.. وكانت حياة.

أتذكر أيامك وحلاوتها، فيشفعان لك حين يئن قلبي من الهجران و القساوة..

لكني أعود أسأل نفسي :

و كيف عنِّي استغني؟

ثم أشُكُّ:

ما دمت يا عمر استغنيت، فقد استكفيت! فمن أين لك بالكفاية؟

ليلة سفرك أوّل مرة بتها أبكي وتبكي، قلت لي أنك لا غني لك عنّي، ولكنك مضطر ليحيا ابننا-الذي كان جنيناً حينئذ- حين يأتي إلي الدنيا حياةً كريمة لن تكفلها له إن أنت بقيت هنا .

أخبرتني أن بُعد المسافات لا يُبعِد القلوب، و أنني سأكون حاضرةً في كل لحظةٍ بقلبك، و أنك ستنظر إلي عينيّ في صورتي كل ليلة لتحلم بي، و أنك ستعود، قريباً ستعود، لتبقي و أبقي حلمك الذي حلمت به فتحقق، ودعائك الذي دعوت ربك به فاستجاب.

سافرت وعدت، لكن لتسافر بعدها ثانية وثالثة ورابعة، تزورني وابنك أياماً معدودات من كل عام، تقضيها في زيارة والديك والأقارب، و تدبير بعض الأمور المتعلقة بالمال. أتت إحدى الزيارات بابنتنا هدى. صار لنا ولدان، كما صارت أحوالك المادية أفضل.

- عُمر.. خذنا معك.

- حبيبتي.. لست مستعداً بالشكل الكافي في الفترة الحالية.

غير مستعد.. سنين وسنين. تمرُّ كل الأيام عليّ متشابهةٌ ألوانها.. أنا

هنا غارقةٌ في مشاكل الولدين والبيت.. وأنت هناك. أشعر أنك في آخر الأرض.. لا أعرف عنك شيئاً.

نتحدث فتسألني عن الأولاد وأسألك عن العمل. أحاول أن أسألك عنك فتأتي إجاباتك مقتضبة.. أحاول أن أُحدِّثك عنِّي فتجئ ردودك – كأيام عمري– باردةً.. باهتة.

ها أنت أصبحت في الآونة الأخيرة مستعداً. أؤمن أنك كنت مستعداً قبلها بكثير، لكن ليس إلى حدٍ يصعب معه إخفاء هذا الاستعداد. أمّا الآن فقد تبدَّل الحال؛ تعلمُ و أعلم أن الله قد وسَّع عليك الرزق، إلى حدٍ لا يمكن أن تخفيه. يبدو أن المشكلة لم تكن في ضيق الرزق.. بل ضيق القلب!

أقول لك : خذنا معك .

فتجيء صدمتي فيك بقولك :

ولماذا؟ لقد اعتاد الأولاد العيش هنا.. مدرستهم وأصدقاؤهم وأقاربهم.. كل شيء هنا.. فلماذا؟

صحيح.. لماذا؟

أمري عجيب.. أنا آسفة.

ولكن ما حيلتي وليس لي سواك أرغب في العيش معه؟ ليس ذنبي أنك لست كذلك، ولا تُنكرْ.. لقد أصبحت علي يقين أن وضعك مختلفٌ.

لا تسألني عن قرائن.. ولا تطالبني أن أثبت كلامي بدليل.

انظر إلى شوق عيني، و برود عينيك..

رغبتي أن أكون معك، ورغبتك أن تظل بعيداً..

لهفتي في احتضانك، وفتورِ لمساتك كأنما نبيت دهوراً معاً..

ما بك؟

أتصدقني إن قلت: لا أريد أن أعرف ما بك؟

آه.. أنا لا أريد أن أعرف أنني أضعت عمري هباءً، و أنني عشت انتظاراً لسراب، و أن حُبَّنا لم يكن حُبَّنا، بل كان حُبِّي وحدي، وأن عهدنا لم يكن عهدنا، بل عهدي أنا.. وفيتُ به وخَذَلْتَني.

شَعرَتْ بحركته متقلباً من اليمين إلي اليسار، فمسحت دموعها سريعاً قبل أن يفيق و يراها. استيقظ و فتح عينيه، فكان أول ما وقع عليه بصره عينيها الناظرتين نحوه، يملؤهما حزن.. ويأس.. وآثار بكاء.

– أنتِ بخيرٍ؟

– أمامك خياران.. إما أن تبقي هنا فلا تسافر، وإما أن تسافر فتأخذنا معك.. ولا ترفضهما معاً، فيكون خيارنا الثالث أن ننفصل.. فأنا ما زلت أحبك.

إشراق

– برافو هَيَا.. تحرزين تقدماً ممتازاً.

– الحمد لله.. هذا بفضلك يا آنسة نور. أنا الآن أجيد التحدث بالألمانية، وأجيد القراءة والكتابة بدرجة لا بأس بها. هذه بداية جيدة. أمامي الكثير لأتعلمه وخطوات كثيرة عليّ أن أخطوها، طرق جديدة عليّ أن أسير فيها.. وأنا حقاً ممتنة لكِ علي مجهودك المضاعف معي. لولا مساعدتك ما كنت لأفهم شيئاً..

– العفو يا هَيَا.. وفقكِ الله حبيبتي فيما هو آت.. سنكون دوماً علي تواصل إن شاء الله.

– بالتأكيد..

– في انتظار عملك الصحفي الأول.. أو ربما كتابك.. من يدري!

ابتسمت القائلة ، الآنسة نور، ذات الوجه الجميل الهادئ ، و الزي البسيط الأنيق، والحجاب المحتشم. قالتها و قد تمنّت، من أعماق قلبها ، أن تصدق الأمنية. وأن تري مستقبلاً هانئاً ناجحاً للفتاة الصغيرة ، هَيَا، التي قَدِمت مع أسرتها فارين من الجحيم في سوريا منذ شهرين تقريبا. هَيَا في السادسة عشر ، لازالت صغيرة بعد. غير أن أحلامها كبيرة جداً، وبريئة. وبرغم كل ما عايشته من كوابيس بغيضة لازالت قادرةً علي الحلم . تحلم أن تصير صحفية و كاتبة محبوبة، أن تكون قلماً للحق.. والرحمة.. والسلام.

- هل أستطيع ؟.. أتظنين حقاً أنني أستطيع؟!

- بالتأكيد يا هَيَا...بدايتك رائعة، وحماسية، تُقبلين نحو حلمك بيقين. كما أن والديكِ مجتهدان ويعملان بكل ما أوتيا من قوة لتهيئة حياة كريمة لكِ ولأخوتك، فلا تخذليهم . لا تتخلي عن الأمل.. تعلّمي واجتهدي.. حتماً ستقودك بدايتك المشرقة إلي نهاية أكثر إشراقاً و جمالاً.

احتضنتها، ودعتها، ثم غادرت نور البيت.

***

"من أشرقت بدايته، أشرقت نهايته"

آه يا شيخي.. رحمك الله. أعجبتني العبارة حين سمعتها منك أول مرة، وفرحت حين أخبرتني ذات يوم أنني مشرقة البداية، ولئن كنت يا سيدي كما قلت.. فما كل هذا الظلام الذي أتيه فيه ؟

ألم تعدني- بحدسك- أن يملأ النور حياتي ؟

ربما كنت حينها كما قلت: مشرقة البداية..

سرعة فهمي عنك، وجودة حفظي للقرآن الكريم ، وختمي له في الخامسة عشر. حرصي علي الصلاة في أوقاتها منذ الصغر، وعلي صيام النوافل.

كان أبي يحبك، فسقاني حبك. كان يُجِلَّك ، فلم أعرف هيبةً لأحد في قلبي مثلك.

كنت قدوتي، ومنارتي. ثم إنك أبو علي، وقد كنت أراه برفقتك، وقد أخذ عنك جمال هيئتك، ووقار هيبتك، وجميل طبعك، فيميل قلبي له ميلاً.

ولعلك شعرت، كما كنت دوماً تشعر، بما في قلبي. جاءني أبي، ذلك اليوم البعيد السعيد، و سألني عن رأيي في عليّ . أخبرته أن عَلَيّ خير الرجال، وابن خير الرجال. في غضون أسبوع، تمت خطبتنا.

آه.. كم كانت تلك الأيام هادئة.. وهانئة.. وسعيدة!

مرضت يا شيخي بعدها بفترة قصيرة . كنت أبكي حين يشتد عليك الألم ، فتقول لي:

ولما البكاء يا نور عيني؟ الموتُ راحة لنا من شرور الدنيا، ورحيل إلي جنب الله ، الرحمن الرحيم.

أنا الآن سأرحل مطمئناً عليكِ يا نوري، وعلي عَلِيّ ، أسعدكما الله يا ابنتي.

رحلت يا سيدي، فانفطر قلبي من الحزن.

لكن الحياة كانت حينئذ لا تزال قابلة للعيش؛ فيها أبي وأخي وعَلِيّ. ثم انقلبت الحياة فجأة رأساً علي عقب؛ نسمع أن أناساً يخرجون ويهتفون، نسمع أن أناساً يُقتَلون ويقتِلون، نسمع دعوات من بعض الناس لكل الناس من شتي أنحاء الأرض أن يأتوا ليقاتلوا في أرضنا.. يقاتلوا في أرضنا؟!

وأنا.. وأبي.. وأخي.. وعلي.. لماذا لم يأخذ أحد رأينا في كل هذا؟

لم يأخذوا رأيي أبداً. عندما أسكنوا الخوف حياتي لم يأخذوا رأيي.. عندما أطلقوا الرصاص من كل حدبٍ و صوب لم يأخذوا رأيي.. وعندما استقرت رصاصةٌ طائشة في صدر عَلِيّ بالطبع لم يكن أحد قد أخذ رأيي.. أخذوا مهجتي و السلام.

تررررن..

(آلو.. أجل يا جارين.. لقد تحركت من بيت هيا وأنا الآن في الطريق.. أمامي عشر دقائق .. سلام).

***

" ما من نَفَسٍ تُبديه.. إلا وله قَدَرٌ فيك يُمضيه"

قد كنت يا مولاي ذات يوم في طريقك، وأنا اليوم في طريقي لألقي جارين. فأي مصير سأنتهي إليه؟ وأي قدر – يا مدبر– أردت بي؟

أنا لم اسأل من قبل. مرة واحدة في صغري سألت شيخي:

لماذا أخذ الله أمي وهي تأتي بي إلي الدنيا بينما ترك أمهات بقية الأطفال؟

أجابني قائلاً أن هذا قدر الله. رأي في عيني دمعاً، فربت علي كتفي بيده. تنهّد ثم قال لي:

– يا نور. لله في قدره أسرار. فإن كنا لا نعرف السر، فنحن نعرف أنه رحيم ، ونعرف أنه اللطيف ، فلا انفصال للطفه عن قدره . فلإن كان الله قد اختار لأمك الرحيل، فلقد اختار لكِ البقاء، فانظري ماذا تفعلين فيما أقامك الله فيه. أعملي خيراً، وأطيعي الله بحب، يغدق عليكِ من محبته ما يطمئن به قلبك. عديني يا نور ألا تحزني وألا تبكِي، فأنا يؤلمني جداً بكاؤك. أتحبين أن أتألم ؟!

آه.. لو كان الأمر بيدي، لما آلمتك يا سيدي.

ما حيلتي والحزن يأبي إلا أن يسكنني؟ لقد رحلت عنّا فلم ترَ ما أصابنا بعدك.

لم ترني حين رحل عليّ ، و لم ترنا بعد ذلك حين قام والدي بتصفية تجارته وجمع كل ما لديه من مال و قرر لنا الرحيل إلي ألمانيا.

قيل له أنها أفضل من غيرها، وأن خيارات الإقامة متعددة ، كما أن الكثيرين قد رحلوا عن سوريا إليها. استأجر والدي بمجرد وصولنا بيتاً ريفياً بسيطاً أقمنا فيه جميعا: أنا وأبي وأخي وزوجته وابنتيه.

في تلك الآونة حرص والدي علي أن أجيد اللغة إجادة تامة، تحدثاً و كتابة. إجادة اللغة ستمكنك من كسب العيش .. هكذا كان يردد دوما. وقد صدق. فبمجرد أن انتهيت من حضور كورس تعليمي مكثف أنفق فيه والدي مبلغاً كبيرا، حرصت علي تنمية مهاراتي اللغوية بشكل عملي.. اقرأ الصحف.. أتابع التليفزيون.. أنصت بانتباه لكلام الناس أينما ذهبت.. أجدت اللغة إلي حد كبير. هيأني هذا للقيام بعمل جيد، أساعد به أبناء وطني، وفي الوقت ذاته أتكسب منه. فالكثيرون قد توافدوا إلي ألمانيا ولا يعرفون عن الألمانية شيئا. وحضور كورس تعليمي في إحدى المؤسسات يتطلب الكثير من المال وإجادة الإنجليزية، وهما أمران لا يتوافران للكثيرين. عملي الذي اتخذته لنفسي هو تعليم الوافدين العرب اللغة الألمانية بمقابل يسير. أحببت القيام بهذه المهمة، وخاصة أنها تتيح لي احتكاكاً كبيراً بأُسَر سورية وعربية. كان أبي قد هيأ لنفسه ولأخي مصدرا للدخل ، إذ شاركا رجلاً ريفياً في زراعة حقول صغيرة في القرية التي نقطن بها. ولكنه بطبيعة الحال دخل بالكاد يكفينا.

ماذا حدث بعد ذلك ؟

رحل أبي يا سيدي.. هكذا فجأة رحل أبي.. كما رحلت عني أمي.. ورحلت أنت ورحل عَليّ.

تمنيت من كل قلبي حينها أن يأخذني الله عنده.

أخي عطوف ويحبني.. وأنا أحب ابنتيه كثيراً.. لكن زوجته لا ترتاح لي ولا أرتاح لها.. خاصةً بعد وفاة أبي. صارت تعاملني كضيفةٍ في بيتهم ناسيةً أن هذا بيت أبي..

متي ترحلين عنّا؟.. هكذا صرخت في وجهي ذات يوم.

خرجت من البيت فلحق بي أخي. أمسك بي وضمني إليه. قال أن المال مال أبي و البيت بيتي، ولو كررت تلك اللعينة قولها ستخرج هي منه.

هذا يا سيدي قدري الذي يمضي فِي و أمضي فيه.. ما كنت أتصوره لنفسي أبدا.

لو صارت الأمور كما حلمت بها ، لكنت الآن في بيتك الكبير في ريف حَلَب أسكن الدور العلوي مع علي. أراك كل صباح فأُصبِّح عليك، ويأتي أبي ليزورنا في المساء فنتناول العشاء سوياً.. نتسامر

ونضحك. أنظر إليكم فتمتلئ نفسي بالرضا ويتدفأ قلبي بأمانكم.. ولربما كان لديّ الآن طفل من عليّ..

أنا لا أحب أن أبكي فيحزنك بكائي.. لكن بالله عليك أخبرني.. كيف لا أذوب من البكاء؟!

تررررن..

(آلو جارين.. لا لن أتأخر أنا فقط أسير علي مهل.. متعبة قليلا.. شكرا.. دقائق وأصل.. سلام).

***

" إذا علمت أن الشيطان لا يغفل عنك... فلا تغفل أنت عمن ناصيتك بيده

غفلت يا ربي. غفلت.

غفلت فلم تكتفِ الشياطين بوسوستي، بل جاءني أحدهم بنفسه متجملًا من أجل تمام الغواية!

جارين.. ليتني لم ألتقِ به أبداً.

المال الذي أجنيه من عملي بتعليم الألمانية قليل، فالأسر غالبيتها فقيرة ولا أطلب سوي مبلغاً يسيراً. ما تركه أبي ليس كثيراً ولا قليلا، ولكن أخي محتاج إلي المال من أجل ابنتيه وزوجته.

دفعني ذلك إلي التفكير في عمل إضافي ، فحصلت علي عملي الحالي بأحد المطاعم : أجلس أمام كمبيوتر وأقوم بتسجيل طلبات الزبائن ومحاسبتهم. عمل بسيط لا يتطلب مؤهلات معقدة و لكنه يحتاج إلي صبر و تحمل الانتباه لمدة ثمان ساعات متواصلة.

هناك التقيت بجارين..

منذ اللحظة الأولي أدركت أنه بالنسبة للجميع ليس كغيره من العاملين .

هو فتي أحلام الفتيات العاملات المثير لخيالهن ورغباتهن، وبالنسبة

لجميع العاملين من الشباب مثير لغيرتهم وأحقادهم. جارين وسيم جدا وجذاب.. لعله أجمل من رأيت علي الإطلاق.

كنت أعرف أنه علي علاقة بإحدى العاملات ، رأيته يتحدث إليها، النظرات و الحركات، كل شيء يوحي بأمرٍ ما. لم يكن يعنيني من أمره شيء ، حتي رأيته ذلك اليوم الذي دخلت فيه المطبخ لأتناول بعض أغراضي قبل مغادرة المطعم..

كانا بمفردهما فيه.. يتبادلان القبلات.. استغفر الله..

أشحت بوجهي مسرعةً وغادرت.. طوال الطريق تظاهر عقلي بأنه لا يعنيه ما رأي.. ولكني حين آويت إلي فراشي ذلك المساء أدركت أن ما رأيت قد أثار في نفسي شيئاً.

– تناسيته. ثم تكرر الموقف بحذافيره بعدها بأسبوعين تقريبا.. لكني لم أشح بوجهي مسرعة هذه المرة، بل أطلت النظر فيما وقع عليه بصري.

رآني.. ونظر إليّ متحدياً دون أن يتوقف عما يفعله.. تمنيت حينها أن تنشق الأرض فتبتلعني.

خرجت متوترةً، وغادرت إلي البيت مسرعةً. قضيت اليوم كله في غرفتي أبكي.

حدث بعد ذلك أن رأيتهما يتشاجران، ثم سمعت الفتيات يتحدثن بعدها بأيام أن علاقتهما قد انقطعت.

فاجأني بعدها بيومين، إذ وجدته يقترب مني ويهمس:

– لقد رأيتك.. رأيت عينيك الجميلتين معلقتين بي.. هل أخبرك أحدٌ من قبل كم هما جميلتان؟

صرخت في وجهه معلنةً رفضي لمجاملته فاعتذر. أخبرني أنه لم يقصد مضايقتي ثم غادر.

كيف تطورت الأمور بعد ذلك ؟

أنا نفسي لا أفهم ..

أصبحنا نتحدث كثيراً.. في العمل وفي الهاتف.. في الصباح وفي المساء..

نتحدث في أي شيء وكل شيء. حاولت أكثر من مرة أن أمنع نفسي عنه ففشلت. وكنت أعود إليه بشكلٍ اقوي.

أنا لا أحبه.. لا ليس حباً.. قد عرفت الحب حين أحببت عَلِيّ . هو أيضاً لا يحبني ولا يتظاهر بذلك.. يتغزل في دوما لكنه لم يقل أبداً أحبك.. أي انحطاط هذا الذي أغرق فيه!

لم يحاول أن يقترب مني فعليا سوي الأمس، طبع قبلةً علي وجنتي فلم أمنعه، ثم عرض عليّ أن أخرج معه في يوم العطلة فوافقت.

وافقت.. برغم علمي بما قد يقع وافقت.

أنا الآن في طريقي لمقابلته.. ما هذا الذي أفعله؟!

ترررررن..

(تنظر في الهاتف و تري اسم جارين فلا ترد.. تفقد توازنها فتجلس علي أحد مقاعد الانتظار علي الرصيف.. تنظر في الهاتف ولا ترد، ثم تجهش بالبكاء).

ما هذا الذي أفعله؟.. هذي أنا؟.. كيف؟

أنت لن تتركني يا رب.. أليس كذلك؟

لمن تتركني وليس لي سواك؟

ومن يجيرني من نفسي إن لم أركن إلي حماك؟

يا رب.. أنت تعرف كل شيء.. تعرفني.

تعرفني يا رب ولا أعرفني.. وتملك أمري ولا أملك من أمر نفسي شيئا..

يا رب.. ضاقت الأرض بي فلا يسعني سوي عفوك، وحرّقتني نيران وحشتي فلا ناجد لي سوي أنسك.. أنا يا رب بك فلا تكلني إليّ.. خذ بيدي ونجني مما أنا فيه.. يا رب.

تررررن..

(تنظر في الهاتف طويلاً ثم ترد)

(آلو جارين.. لا تنتظرني فلن آتي.. ولا تتصل بي بعد اليوم.. أخبر المدير باستقالتي من العمل.. سلام).

مسحت دموعها، غمرتها نشوة لم تذقها من قبل.

غاب الكون من حولها.. لم يبقَ منه سوي صوت الشيخ صادحاً:

- نحن في لذةٍ لو عرفها الملوك ، لقاتلونا عليها بسيوفهم.

---

*العبارات الواردة بين علامات التنصيص من (الحكم العطائية) للعالم العارف (ابن عطاء الله السكندري) ، رحمه الله

الفهرس

غُفران 5

السَّاحِر والشتاء 17

وِصال 23

وَحْدِي 33

طواف 47

اعتراف 53

جابر 65

نصيب 81

سفر 93

إشراق 99